صراط التوحيد

من زمن التوهج

فهمي المدرس

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

العدد (2211) السنة الثامنة

الخميس (4) اب 2011

12

فهمي المدرس ألمع كاتب سياسي عراقي

فهمي المدرس من أعلام اليقظة الفكرية في العراق

ع ميـر بصري
اديب ومؤرخ راحل

الكاتب العراقي الكبير محمد فهمي المدرس، وهو ابن القاضي الشرعي الشيخ عبد الرحمن بن سليم بن محمد بن احمد بن الشيخ سليمان الخزوجي الشهير المدرس، وكان الشيخ سليمان قد قدم بغداد من الموصل واتخذها سكنا.

ولد فهمي بك في بغداد سنة ١٨٧٣ وقرأ مبادئ العلوم على والده، ثم عكف على الدرس على شيوخ عصره كالشيخ عبد السلام والشيخ بهاء الحق والشيخ عبد الرحمن القرطاغي واسماعيل الموصلي ونعمان الالوسي والشيخ محمد سعيد ومحمود شكري الالوسي. وتلقى في الوقت نفسه دروسا في اللغتين التركية والفارسية حتى اتقنهما، ودرس بعد ذلك شيئا من اللغة الفرنسية.

ولم يكد يبلغ العشرين من عمره حتى عين مترجما في ولاية بغداد ومعاونا لمدير مطبعة الولاية، ثم رفع مديرا للمطبعة ورئيسا لتحرير جريدة الزوراء الرسمية بقسميها التركي والعربي (١٩٠١). وعهد اليه في خلال تلك الحقبة ايضا التدريس في المدرسة الاعدادية الملكية وعضوية مجلس معارف ولاية بغداد ونظارة مدرسة الصنائع. وقد نقل مديرا لمطبعة الولاية في جزيرة رودس ببحر سفيد في تشرين الاول ١٩٠٥ على اثر وشاية رفعت عنه الى السلطان عبد الحميد الثاني، ولكن اعيد الى منصبه السابق في بغداد في تشرين الثاني ١٩٠٦.

وفي اوائل ايار ١٩٠٨ سافر الى الاستانة، فلم يمض وقت قصير على وصوله اليها حتى قام الانقلاب العثماني، وكان فهمي المدرس يحمل توصية الى الشيخ ابي الهدى الرفاع المتقرب الى البلاط الشاهاني، فخرج على ما يرويه الدكتور ناجي الاصيل نقلا عن الاستاذ المدرس نفسه – قاصدا دار ابي الهدى فرأى الطرق تموج بالجماهير الحانقة المتحمسة التي تنادي بالحرية والعدالة والدستور. وعلم ان الثورة قد قامت على الاستبداد فمزق التوصية التي كان يعقد عليها اماله وانغمر مع الجموع المزمجة الهاتفة لا يلوي على شيء.

وعرفت الآستانة فضل الاستاذ العراقي فعينته استاذا لأوصل الكتابة والانشاء باللغتين العربية والتركية في كلية الالهيات بجامعة دار الفنون فاستاذا لـادب في كلية الآداب. وعهد اليه بتدريس اللغة العربية في كلية اللغات وحكمة التشريع الاسلامي في الكلية الملكية الشاهانية والآداب العربية في الجامعة ومدرسة الوعاظ العالية، ووضع في تلك المواضيع كتبا ثمينة.

واوفد سنة ١٩١٣ لدراسة مشاكل التعليم في بيروت ودمشق، فقام بمهمته ورفع تقريرا عن اصلاح المدارس.

وقد بقي يدرس في جامعة الاستانة حتى انتهت الحرب العظمى وانسلخت الولايات العربية عن الدولة التركية، فاستدعته الحكومة الفيصلية في الشام في تموز ١٩١٩ للقدوم الى سورية، ولم يكن منه الا ان ترك الاستانة على عجل ومضى الى دمشق. ولم يجد فيها ما تأنس اليه نفسه، فلم يلبث ان غادرها في تشرين الاول فبقي في منصبه سنة واحدة ثم فصل عنه بطلب من المندوب السامي البريطاني لحادث وقع في يوم الاحتفال بعيد التتويج الملكي الاول. وعين بعد ذلك امينا لجامعة آل البيت (١٣ نيسان ١٩٢٤) فتولى رئاستها الى سدها في ٢٤ نيسان ١٩٣٠.

وساهم في النشاط السياسي الذي دار في السنوات التالية، وكتب في جريدة «البلاد» مالات سياسية خطيرة كان لها دوي شديد في المحافل الوطنية، فابعد الى الشام مع رفائيل بطي صاحب جريدة (اذار ١٩٣٢).

وعين في ١٨ آب ١٩٣٥ مديرا عاما للمعارف، فلم تمض اسابيع قليلة حتى استقال من منصبه (٩ ايلول ١٩٣٥) . واختير بعد ذلك مديرا لدار العلوم العربية والدينية في الاعظمية من ضواحي بغداد فتولى ادارتها سنتين (تشرين الثاني ١٩٣٦ – تشرين الثاني ١٩٣٨) .

ولم تفارقه حماسته وقد بلغ الشيخوخة، فلما قام رشيد عالي الكيلاني بحركته الوطنية في ايار ١٩٤١، بادر فهمي المدرس الى تاييدها وألقى خطابا دفاعا عنها من الاذاعة الالاسلكية رغم علمه بعدم احتمال نجاحها.

وقد توفي في بغداد في ١٤ آب ١٩٤٤.

وكان يجلس للناس في داره فيؤم مجلسه رجال السياسة والادب والفضل والشباب الوطني. وكان يعتز بارائه، صريحا في القول، فوار العاطفة، متدفق البيان، وقد روى الدكتور ناجي الاصيل الذي لازمه سنين طوالا ان نوري السعيد سأله ذات يوم في بعض المجالس عن حاله فقال: لست بخير، فنحن كلما زرعنا الورد انبت شوكا. وقال مرة لعبد الحسن السعدون: كلما توغب الوزارة تغمض عينيك وتمد يدك الى الشارع فتصنع الوزراء جزافا. فهلا مددت يدك الى محلتنا؟

وكان حاضر البديهة ، حلو الفكاهة: روى احمد حامد الصراف – ان الزهاوي غضب في بعض الايام لانه لم يحسن اختيار المقعد الملائم له حينما حضر لزيارة الملك فغمز قناة المدرس قائلا:

انا لو كنت بليدا
فاز في الاسهم سهمي
انما اخرني اليوم
عن الافران فهمي

فرد عليه المدرس على الفور:

انا لو كنت بليدا
طاش في الاسهم سهمي
انما قدمني اليوم على الافران فهمي

وكان واسع الاطلاع على الفارسية وآدابها. حدثني المرحوم محمود الملاح الذي كان يواصل حضور مجلسه ان الزهاوي، حينما اوفد لتمثيل العراق في مهرجان الفردوسي، اعد قصيدة فارسية لالقائها في طهران، فقرأها على فهمي المدرس واخذ بملاحظاته في ابياتها ولم يطمئن الى جودتها حتى سمع باذنيه رضا الاستاذ عنها.

مؤلفاته:

جمع فهمي المدرس محاضراته التي القاها في جامعة استانبول باللغة التركية في كتاب سماه «تاريخ الادبيات العربية» صدر منه جزآن، وقد طبع الجزء الاول (١٩١٤) وقد علمت ان الجزء الثاني كان قد انتهى طبعه حين قرر المؤلف السفر الى الشام سنة ١٩١٩، فلم يكلف نفسه مؤونة انتظار صدوره، وجمع محاضراته في موضوع التشريعة الاسلامية في كتاب «حكمة التشريع الاسلامي» (باللغة التركية).

وله عدا ذلك: مقالات (في جزئين طبعا سنة ١٩٣١ – ٣٢) ، فضلا عن مقالاته السياسية والاجتماعية الاخرى المتفرقة في الصحف وبحوثه في «فلسفة المواريث في الاسلام» و«بحث في الديانة الزودشتية» اعدها لطلاب جامعة آل البيت الخ.

شعره:

لم يعرف عن فهمي المدرس انه كان شاعرا، لكن عثرنا له على قصيدة عصماء بلغ عدد ابياتها نحوا من ١٢٠ بيتا، وقد رثى بها صديقه الاديب التركي محمد سامي بك سليمان المعروف باسم «سليمان نسيب».

وكان محمد سامي بك المولود في الاستانة سنة ١٨٥٧ نجل القائد العثماني الشهير سليمان باشا المشهور في حرب روسية (١٨٧٧)، ثم نفاه السلطان عبد الحميد الثاني الى بغداد، وفيها نشأ ابنه الاديب الشاعر واصبح فيما بعد مديرا لمعارفها.

وعاد سليمان نسيب الى تركية فتقلد مناصب عالية حتى كان مديرا عاما لجامعة استانبول المعروفة باسم، دار الفنون، وتوفي سنة ١٩١٧. وقد جمع اصدقاؤه طائفة طيبة من شعره ونثره في كتاب طبع في العاصمة التركية سنة ١٩١٨ باسم «سليمان نسيب، ادبي وفكري حياته، والحقت به المراثي التي قيلت فيه، وهي كثيرة ساهم فيها اكثر ادباء التركية انذاك، ومنهم محمود صبحي الدفتري (الذي رأيت نسخة من الكتاب لديه) وابراهيم الحيدري وغيرهما.

ضمت تلك المجموعة الطريفة قصيدتين عربيتين في رثاء الاديب التركي، اولاهما لمعروف الرصافي نائب المنتفق في مجلس المبعوثين، ومطلعها:

ابكي بك الموت عين العلم والادب
يا سامي النفس والاخلاق والرتب.

قد كان منعاك لما ان سمعا به
كضربة السيف في قلبي وفي عصبي

ولم تنشر هذه المرثية في ديوان الرصافي المطبوع سنة ١٩٤٩. اما القصيدة الثانية فطويلة لفهمي المدرس استهلها بذكر حكمة الموت فقال:

هو الموت لا يبقي من الناس باقيا
وما ان ارى حبا له الله وافيا
فذاك سليمان ونوح وآدم
واحمد كل جاءه الموت داعيا

ويمضي المدرس في شعره فيذكر الحرب المدمرة التي كانت تحرق العالم بشواظها القاتل، ويقول مخاطبا صديقه الراحل:

ولما رأيت الناس ضلت عقولهم
وكلا بهذا القرن اصبح باغيا
وان دماء الناس شرقا ومغربا
تراق بلا إثم ولم تر ناهيا
ولم نر من تلك العلوم زواجرا
ولا من دعاة الحق للحق داعيا
ولا الموت يثنيهم، ولا الدين حاجز،
ولا صارم عضب يرب الدواهيا
وضاق على المرء القضاء فلم يجد
له مهربا كيما يعيش مصافيا
وفي الجو او قعر البحار وفي الثرى
اذا ما احتمى لاقى الردي والروماميا
وما ابقت الايام – يا ويحها – لنا
كهولا ولا ابقت لدينا ذراريا
سئمت من الدنيا جميعا واهلها
وغادرت هذا العيش لله غاديا
ولو كان عقل الناس للناس هاديا
لما كان بعض الناس للناس ماحيا

لكن اجمل ما في القصيدة لم يأت بعد. ان اهوال الحرب ودماء الناس والعمران لم تنس الشاعر المغترب وطنه وبلده ، فما ان يدورا بخلده حتى يغص بريقه ويترك فؤاده نهبا للذكريات والاشواق والاحلام، فيقول:

لقد ضاق صدري عن احاديث لم اجد
سواك اليها في البرية صاغيا
احاديث ايام خلفن بلا ضحى
فمرت طوالا كلهن ليالیا
احاديث اوطاني واهلي وعترتي
وابناء نوعي ثم نفسي ومالیا
احاديث ارض ما رضيت بغيرها
مقيلا ولا عن اهلها كنت سالیا
عرفت الهوى فيها وعانقت ظلها
وقضيت اووطاري بها وشبابیا
احاديث عن وادي الفرات ودجلة
ومن ذا راى – قل لي – كدجلة واديا؟
نسيم الصبا ما هب في جنباته
رأيت نعيما في الجوانب جاريا
ومن ذا الذي ينسى الرصافة والمها
وينسى سدا جناتها والمغانیا؟
فلي كبد حرى اذا ما ذكرتها
وطرف متى ما نبهته كان داميا
بلادي اراها في البلاد عزيزة
ولا ارتضي في العيش الا بلاديا!...

ان هذه القصيدة لم تكن رثاءا جاشت به نفس صديق لصديقه فحسب، ولكنها نفحة عطرة من نفحات وادي الرافدين هبت على ضفاف بحر مرمرة والبوسفور، فنفست عن صدر الاديب العراقي المغترب وهدهدت اشواقه وامانيه.

وقد ذكر عباس العزاوي بيتا من الشعر لفهمي المدرس ارخ فيه نصب جسر بغداد الذي اقامه الوالي نامق باشا الصغير في ايلول ١٩٠٣، وهو:

وبمعجم الالفاظ ارخ قائلا:
مروا عليه ذا صراط مستقيم

وذكر كما ابراهيم تلميذ فهمي المدرس ومريده ان استاذه نظم قصيدة دالية من بحر الكامل في اكثر من سبعين بيتا اعدها لتلقى في حفلة تخرج الدفعة الاولى من طلبة جامعة آل البيت، قد جاء فيها:

كل الشعوب تحررت من رقتها
الا ابن يعرب لم يزل مستعبدا

لكن الغاء الجامعة حال دون القائها فنشرت القصيدة في احدى الصحف المحلية بتوقيع مستعار.

نثره واراؤه

كان فهمي المدرس وطني النزعة ، اسلامي الفكرة، داعيا الى نهضة المسلمين وتضامنهم. وقد قال في خطاب القاه بحفل المولد النبوي في حزيران ١٩٣٧.

«ثالثة عشر قرنا تتابعت على حياة البشر وهي تملي علينا من مناقب هذا اليوم ما ملأ بطون التواريخ، ولم تبلغ شأوها البعيد.

وفي مثل هذا اليوم من كل عام تتجاوب انحاء العالم الاسلامي بما يردده الخطباء والشعراء وما تفيض فيه الاقلام من اسرار ذلك المجد الذي تلألأ نوره في بطحاء مكة وسارت ركباته بتلك السرعة الخارقة حتى بلغت مشارق الارض ومغاربها، وكانهم ما قالوا ، وكأنهم ما كتبوا.

ثلاثة عشر قرنا والعلم يكشف للناس من حقائق دين الاسلام ما لا يبقي شكا في ان هذا الدين اجل واعلى مما تفهمه الاكثرية الساحقة من المسلمين في هذا اليوم.

ان تعاليم دين الاسلام جاءت بحسب تطور المدارك والقابليات واستعدادها لقبول ذلك الانقلاب الخطير . ولم تكن مقصورة على قوم او على زمن او على قطر من الاقطار، وانما هي نظم واقوانين ثابتة تتمشى مع العلم والعقل كلما تطور البشر واتسعت مداركه بمقتضى قاعدة النشوء والارتقاء.

بنيت سياسة هذا الدين على اساس العدل والاحسان والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والتساوي في الحقوق وتوسيد الامور الى اهلها وجعل نظام الحكم شورى بين الناس.

ومن اسسه الاجتماعية الصدق والاخلاص وتهذيب النفس وطلب العلم وقوة العزم والارادة والتعاون على البر والتقوى والتوازن بين الفقراء والاغنياء ومواصلة السعي والعمل الى غير ذلك مما هو منصوص عليه في كتاب الله العزيز.

فدين الاسلام هو دين التمدن والحضارة، وهو دين العلم والسياسة، وهو دين الانسانية المتكاملة في مكارم الاخلاق، وهو الدين الكافل للبشر سعادة الدارين في كل زمان ومكان..

ثم اشار المدرس الى عوامل الانحراف عن النهج الاسلامي القويم. واجتماع العوامل الهدامة في الداخل والخارج للفت في عضد الدين، واتكال المسلمين على ماضيهم وانغماسهم في الملاذ والشهوات وانقطاعهم عن العمل واختلاف نزعاتهم وتفرق شلمهم، وما افضى اليه كل ذلك من الضعف وخذلان وانحطاط وقال:

«والآن وقد اصبحوا من المستضعفين في الارض لايملكون من الامر شيئا حتى في ديارهم وفيما ملكت ايديهم، فما لهم الا ان يرجعوا الى تعاليم دينهم القائمة على اساس الوحدة والاخوة، وينبذوا الاختلافات المذهبية والنزعات العنصرية، ويستحوا العزائم من ماضيهم، ويستمدوا القوة من دينهم، ويصلحوا من الاخلاق ما ظهر منها وما بطن، ويعدوا للحياة عدتها المطلوبة في هذا العصر. وحسبهم ان يكونوا عالة على الامم في جميع لوازم الحياة ونصيبهم منها الحثالة، وهم من عصارة خير امة اخرجت للناس، ويجعلوا نصب اعينهم انا تأخرنا عن الامم في مضمار الحياة اربعة قرون، وان الرقابة بين الامم تستفز الهمم وتبعث من عزائمهم ما يزيدهم في كل يوم بأسا وقوة.

ذلك ما يحتم على كل مسلم ان يفكر ويقوم بواجبه ازاء هذا الوضع الخطير ، عسى ان يقف الشر عند حده و(لعل الله يحدث بعد ذلك امرا).

من كتاب (اعلام اليقظة الفكرية)

فهمي المدرس
علـمٌ عـراقـي شامـخ

ع د. يوسف عز الدين

الاستاذ فهمي المدرس علم شامخ من اعلام الادب والفكر والحرية في دنيا العرب. فقد كرس حياته وفكره وقلمه لخدمة الامة العربية وسعادتها وخيرها سواء في تركها استاذا للادب العربي في الجامعة في استانبول او عميدا لجامعة ال البيت او موظفا مرموقا او معارضا متحمسا لقضايا الاستقلال ومحاربة الاستعمار كان رحمه الله فذا في الرجال لايزال اسمه يدوي بين عارفي فضله وعلمه ولا عجب فقد كان صادقا في عقيدته مؤمنا بفكرته ومؤمنا في تحقيقها فما هادن او استسلم وما الهته الدنيا بزخرفها ولا السلطة بجاه او بمنصب.

وقد ساهم مساهمة فعالة في تطوير الفكر العربي في العراق والنشر في العصر الحديث، بكتاباته الوطنية والاجتماعية والسياسية التي كانت تنشر افتتاحيات في الجرائد العراقية يقبل عليها الناس بشغف شديد وترقب دائم. ولا شك في ان الاستاذ المدرس من الاوائل الذين نقلوا النشر في العراق من جمود القرن التاسع عشر بالفاظه المنمقة المزخرفة المحنطة بسجعها الممل المفتعل الى ميدان رحب من السلاسة في التعبير واليسر في البيان والعذوبة ونقل الفكرة. فاذا قرأناه وجدنا لغته تندفع واضحة المعلم جليلة الصور سهلة المعاني يسيرة الفهم فلا تعقيد ولا ابهام ولا استعمال للالفاظ القاموسية القديمة. وخير دليل على هذا القول كتابه (مقالات) ورغم ما قدمه الاستاذ المدرس من تضحيات من اجل هذا الوطن الا انه وللاسف الشديد لم ينصف ولم يكتب عنه وترك في زاوية من زوايا الاهمال والنسيا، شان كثير من قادة الفكر والادب والحرية في العراق من اعمال ياسين الهاشمي وابراهيم صالح شكر وجعفر ابو التمن، وطه الهاشمي وطه الراوي وغيرهم من افذاذ الرجال في العراق.

وقد التقت عدة رغبات في احياء ذكرى الاستاذ المدرس من المحرر الادبي للزمان ومن جريدة (الايام) ومن الدكتور ناجي الاصيل نفسه. ولم يكن غير الدكتور الاصيل من يعول عليه في مثل هذا الموضوع فهو صديقه الوفي وزميله في كثير من عهوده الحياة، وهو اقرب الناس اليه ومن قراءة هذه المذكرات نجد التقدير في كل كلمة من كلمات الدكتور الاصيل والوفاء في كل سطر من سطورها والاعتذار في كل ما حدث عنه وفي هذه المقالة القصيرة من المشاعر العميقة والاحاسيس الصادقة والوفاء العربي الجميل، ما يسر نفوس الادباء والمفكرين وفي هذه المقالة ذكريات عذبة لطيفة ولمحات من تاريخ الفكر العربي كانت منذورة اخرجها الدكتور الاصيل وصفحة مجهولة يسرها للباحثين.

وليس لي ان اقول شيئا في علمين من اعلام الرأي والفكر العربي فما انا غير تلميذ صغير من مدرستهما ومتعلم مستجد ارشف من معلنهما العذب المدار لانهما اشهر من ان تقال فيهما كلمة سريعة، ولولا رغبة مكتبه النهضة في اخراج المقال على الشكل والحاح في تعريف سريح له لروابطتي الشديدة بالدكتور الاصيل ورعايتها السديدة لي لما اقدمت راجيا ان وفيت بعض الشيء لهما.

واسأل الله السداد.

من مقدمة كتاب (فهمي المدرس) لنأجي الأصيل

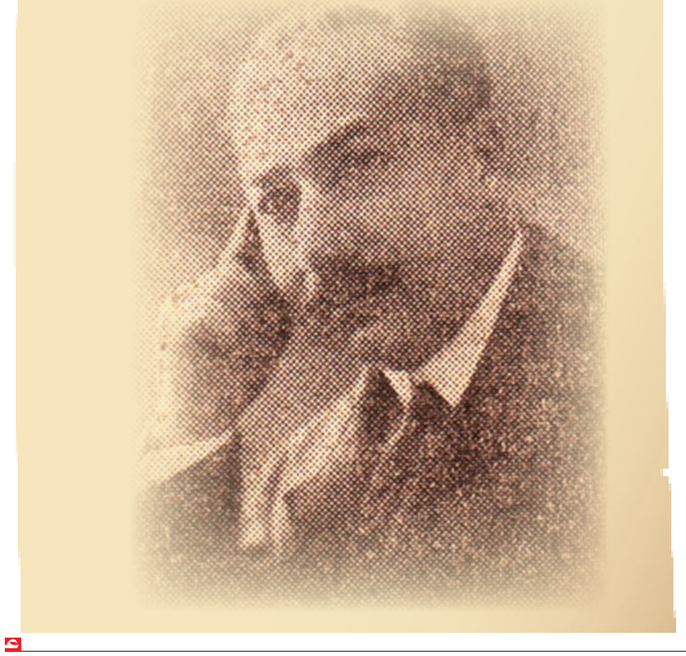

استجلاء موقف فهمي المدرس يوم التتويج

رفعة عبد الرزاق محمد

على الرغم من المقالات القصيرة والخواطر المتناثرة التي يكتبها الاستاذ الفاضل عبد القادر البراك هنا وهناك، فانها تضم بعض الحقائق المنسية عن اعلام العراق الحديث التي لا يجوز التغافل عنها، وهي تصدر عن شخص اطلع بحكم مهنته على اسرار كثيرة من سير هؤلاء الاعلام، ووجد ان تثبيتها افضل بكثير من بقائها محفوظة في الصدور – وهو محق- .. وهكذا كان الامر مع كلماته عن المرحوم فهمي المدرس (١٨٧٣ – ١٩٤٤) في جريدة العراق الزاهرة (٢١ اب ١٩٨٥) وفي مجلة وعي العمال الغراء (ايلول ١٩٨٥) واخيرا كتب استاذنا الفاضل حارث طه الراوي مقالا قيما عن المدرس في جريدة الجمهورية الغراء (١٢ ايلول ١٩٨٥) ، ذكر فيه بعض الحقائق والذكريات الطريفة.

والذي لفت انتباهي في كلمات البراك الادبية قضية عزل فهمي المدرس عن امانة البلاط الملكي سنة ١٩٢٢ اثر مظاهرة بيوم التتويج

والمقال الذي بين يديك توضيح لهذه القضية التي مازالت – كما يبدو – محلا لطرح الروايات والاراء المختلفة. ان الشواهد التي اذكرها هنا تؤكد ان المدرس – رحمه الله – لم يخطب اية خطبة يومذاك، واقا عملية فصله كانتمؤامرة محاكة ضد الوطنيين المقربين من الملك فيصل الاول، ولعل الحاشية المحيطة بالملك كانت تخشى اي صوت عراقي وطني مقرب للملك وتلصق به التهم المختلفة لايغار صدر الملك ضده او التنسيق مع (دائرة المندوب السامي) لتصفيته.

×××

والحقيقة ان الذي اثار الالتباس هو امين الريحاني الذي روى في كتابه عن الملك فيصل الاول (ص ١١٥- ١١٦، ط٢) ان الملك بعث رئيس امناء البلاط – يقصد المدرس – ليقابل الوفد ويجيب الخطيب بكلمة شكر تناسب المقام، ولكن الرئيس وهو يسمع حماس الجماهير، ذهل ونسى مقامه الرسمي واشتعلت فيه الحميه والحماسة فراح في جوابه يحاربه في مضمار السياسة والوطنية فتهف له الجمهور اضعف هتافهم لخطيب الوفد، وبينما هو يخطب وصل المندوب السامي السر برسي كوكس لتهنئة الملك، وكان واجب رئيس الامناء ان يستقبل المهنئ فختم خطبته بكلمة من نار فصاح انذاك الناس قائلين: ليسقط الانتداب ليسقط البريطانيون، ويقول الريحاني ان هذا الحادث زاد في الام الملك فكتب الى كوكس يفصح عن اسفه الشديد. ثم اقال رئيس الامناء من وظيفته.

هذه هي الرواية التي ذكرها الرحاني حول قضية فصل المدرس، وملخص الحادثة كما يصفها شاهد عيان، واحد النقاة، هو المرحوم الدكتور محمد مهدي البصير في كتابه (تاريخ القضية العراقية، ج٢ ص٤١) والتي استمر في تأكيدها في مناسبات لاحقة، هي انه لما حلت الذكرى الاولى ليوم تتويج الملك فيصل في ٢٣ آب ١٩٢٢ استغلت قيادة الحزب الوطني العراقي هذه المناسبة فقامت بمظاهرة الى البلاط الملكي، وبعد تهنئة الملك من قبل القيادة تقدم جعفر ابو التمن واخبر الملك ان الحزب يرغب في القاء كلمة وطلب من الملك ان يأمر احد رجاله ليحضر بالنيابة عنه للاشراف على الجمهور وسماع الخطاب، فندب الملك كبير امنائه فهمي المدرس لذلك.

وكانت اللجنة التنفيذية للحزب الوطني قد اتفقت مع حزب النهضة على ان يعهد الى محمد مهدي البصير لالقاء الخطاب من على شرفة بناية (المشيرية) في القشلة والتي اتخذت بلاطا ملكيا.

والقى البصير الخطاب على الجماهير المحتشدة في ساحة المشيرية (رأيت الخطاب كاملا في جريدة المفيد ليوم ٢٥ آب ١٩٢٢).. وفي هذه الاثناء قدم المندوب السامي الى البلاط لتقديم التهاني فلما وصلت سيارته الى مكان التجمع لشعبي لم تستطع سيارته اجتياز الجماهير الا بصعوبة، واثناء سير كوكسي الى مكان الملك ارتفع صوت بين الجماهير ودت بعده عاصفة من التصفيق والهتاف، وعلم فيما بعد ان الصوت كان ينادي بسقوط الانتداب البريطاني.

ويقول البصير ان الصوت اثار استياء اعضاء حزبي الوطني والنهضة لعلمهم ان كوكس سوف يستغل ذلك.

ومن هذه الرواية نجد ان المدرس لم يكن سوى مستمع لخطاب البصير بتكليف سامي خوندة الذي يذكر ان المدرس كان ينصت الى الخطيب باهتمام عندما دخل كوكس الى ساحة البلاط وتعالي الهتافات ضد الانتداب البريطاني، وان الذي هتف ضد الانتداب واثار الجماهير هو حسون ابو الجبن.

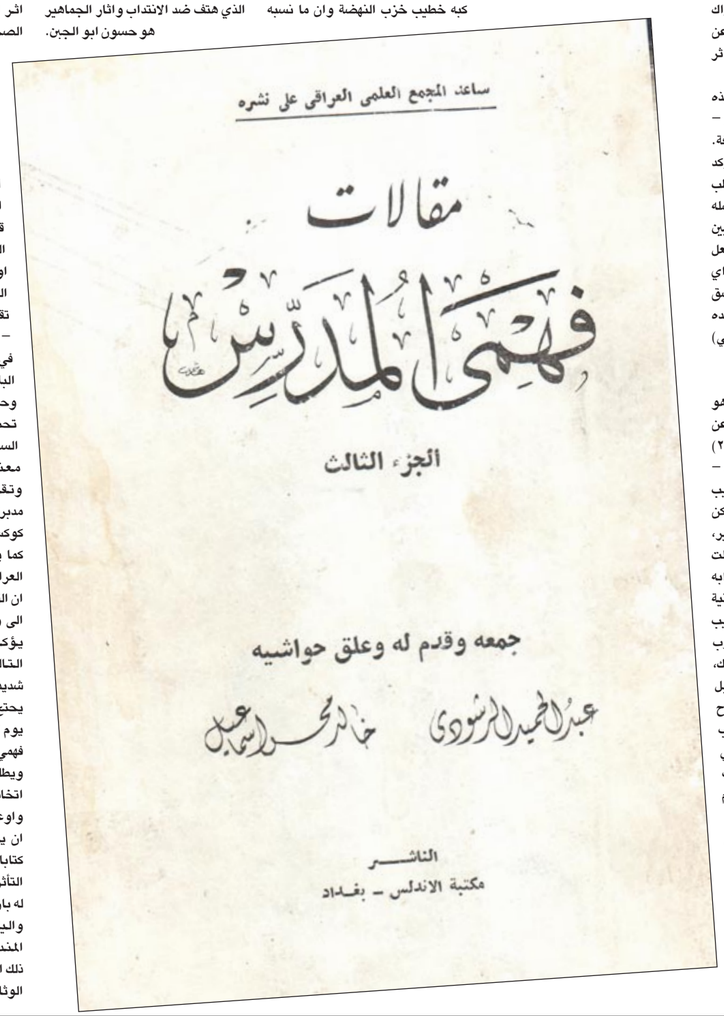

ويذكر خوندة انه اتصل بابي الجبن بعد سنوات وعرف منه انه كان يجهل نتيجة عمله وقد اعلن امامه ان جهات رسمية طلبت منه ان يهتف حال وصول كوكس فقبل دون تردد!!.

وقد تبين فيما بعد ان كل ما يدبر ويحاك في البلاط من مؤامرات ضد الشخصيات الوطنية كان يقوم بها احد حاشية الملك ومن رجال رستم حيدر، وهو امين الكسباني. وقد اشار اليه غير واحد من الذين نثق بروايتهم. على ان المدرس بعد عزله ظلت الانظار ترن اليه لما امتاز به من اخلاص ونزاهة.

ولما اتجهت الرغبة الى انشاء جامعة آل البيت اختير المدرس رئيسا لها سنة ١٩٢٤ حتى الغائها على يد نوري السعيد سنة ١٩٣٠ بحجة ضيق الميزانية، وبعدها تقلد مديرية المعارف العامة لكنه اثر الاستقالة والانصراف الى ميدان الصحافة السياسية كما هو معروف في سيرته اللامعة.

×××

والاخطر من كل ما ذكرناه اعلاه، الوثائق البريطانية التي تتيح للباحث فرصة طيبة لتقصي الحوادث ومعرفة الوجه الرسمي للموضوع. لاسيما وان دائرة المندوب السامي هي احد اراف قضيتنا. وقبل ان اسوق الوثيقة البريطانية وهي القل الفصل هنا. اود ان اذكر ان (المس بل) السكرتيرة الشرقية للمندوب السامي انذاك تقول في رسائلها (رسائل المس بل – ص٦٤٨) انها كانت مرافقة كوكس في زيارته للملك وانها قد وصلت الى البلاط وكانت ساحته غاصة بالناس وحوالي ثلثمائة او اربعمائة يقفون تحت السلم، وبينما كان كوكس يرتقي السلم انطلق صوت بين الحشد لم يتبين معناه واعقبته موجة من التصفيق وتقرر (الخاتون) ان المظاهرة كانت مدبرة لتحدث في الوقت المحدد لاستقبال كوكس.

كما يذكر التقرير البريطاني عن احوال العراق لسنة ١٩٢٢ – ١٩٢٣ ،ص١٨) ان القادة الوطنيين طولوا مقابلتهم للملك الى وقت وصول المندوب السامي حتى يؤكدوا له انهم حاضرون. وفي اليوم التالي ارسل المندوب السامي انذارا شديد اللهجة الى رئيس الديوان الملكي يحتج فيه بعنف على ما لقيه من معاملة يوم التتويج ويطلب منه الاعتذار وعزل فهمي المدرس اذ كان هو المسؤول رسميا ويطلب بيانا بالاجراءات التي ينوي الملك اتخاذها ضد المواطنين.

واوعز فيصل الى سكرتيره رستم حيدر ان يرد على الانذار البريطاني فارسل كتابا الى المندوبالسامي اعرب فيه عن التأثر الشديد الذي اصاب الملك والتأكيد له بان الملك سيعمل كل ما هو ضروري.

واليك الوثيقة البريطانية التي كتبها المندوب السامي ووصف فيها احداث ذلك اليوم، والوثيقة من محفوظات مركز الوثائق البريطاني في لندن ورقمها (اف ا. ف ٣٧١/٧٧٧١) .

"الى وزير المستعمرات (سري) ٥٩٧ بتاريخ ٢٥ آب ١٩٢٢)

مرت في يوم ٢٣ آب الذكرى السنوية لتتويج فيصل، وقد اعتبر ذلك اليوم عطلة رسمية كما استقبل الملك المهنئين في السراي، لقد ذهبت للتهنئة مع الهيئة العاملة معي في الوقت الذي حدد لنا. عندما دخلت ساحة السراي وجدت حشدا مؤلفا من بضع مئات من الناس ملتفين حول بناية الملك. لقد افسحوا المجال لسيارتي بالمرور وعندما بدأت اصعد الدرج لاحظت بان الحشد كان يستمع الى خطاب من شخص يقف مع مجموعة من الشخصيات العربية في شرفة الغرفة التي كان فيصل يستقبل فيها وفود المهنئين، وعند اجتيازي للدرج صفق الحشد لبعض الملاحظات التي صدرت من شخص ما من بين المحتشدين والتي لم اتمكن من سماعها بعد مغادرتي السراي بدقائق تفرق الحشد. لقد طلبت اعلامي بما كان يجري، وقد وجدت بان الملك قد استقبل مباشرة قبل استقباله لي الحزب السياسي المتطرف وعند انتهاء المقابلة اتجهوا الى الشرفة المطلة على ساحة السراي حيث القى الاعمى الديمانهوجي المنهج للناس، السيد مهدي البصير الحلي خطابا في الحشد ضد السياسة البريطانية والاستعمار البريطاني اما عن الملاحظات التي سببت تصفيق الحشد عند حضوري فقد كان هتافا يقول (يسقط الانتداب). عند اطلاعي على هذا التقرير كتبت في الحال احتجاجا شديد اللهجة الى فيصل مطالبا بالاعتذار حالا عن الاهانة الفادحة لممثل حكومة صاحب الجلالة، واقالة كبير امناء الملك فهمي المدرس الذي اشار او سمح للديمانهوجي بالقاء خطابه بل انه وقف الى جانبه عند القائه الخطاب. كذلك طلبت قائمة باسماء الاشخاص المكلفين بحماية القصر الملكي.

لقد نقل فيصل الى فراشه هذا اليوم حيث يزعم انه يشكو من الم حاد في المعدة. ومع ذلك فقد استلمت الاعتذار كما قبلت مطالبي".

وفي اليوم الثاني كتب كوكس الى وزير المستعمرات (تشرشل) قائلا انه اوضح لفيصل بانهما يسيران في طريقين مختلفين وان القاء الخطاب من شرفة احد غرفه تعني انه قد اصبح بشكل واضح مع حزب الوطنيين المتطرفين وانه مسؤول عنهم. ولقد اخبره (اي لفيصل) بان عليه ان يعلن بشكل عام انفصاله وعدم علاقته بالمهيجين ويسير معنا بشكل عام، او ان يتحمل النتائج والتي تعني نهاية عرشه!!.

ملحق: نص الانذار الذي بعثه المندوب السامي الى الملك اثر الحادثة:

سعادة رئيس الديوان الملكي المتحرم نرجو ان تخبروا جلالة الملك بان فخامة المعتمد يحتج بعنف ضد ما لقيه من المعاملة في وقت كان فخامته يمثل حكومة ملك بريطانية العظمى، مارا بباب غرفة الاستقبال، ليؤدي مراسيم التبريك وان فخامته اخبر لندن عن هذه الحادثة، ويطلب ان يعتذر اليه، وان يعزل فهمي افندي المدرس اذ كان هو المسؤول رسميا، ويطلب فخامته بيانا عن الاجراءات التي ينوي جلالة الملك اتخاذها ضد الخطيبين اللذين حقرا مقام الملك بالقائهما خطبة مهيجة.

٢٤ اوكست ١٩٢٢

بيرسي

العراق 20 /1985/11

فهمي المدرس أديب تقدم على زمانه

خالد الدرة
صحفي راحل

ينفرد الادباء العراقيون بمزية لم نعرفها عن احد من ادباء العالم، او هكذا يبدو لي، هي مزية صراحتهم في القول وان جلبت عليهم هذه الصراحة الصائب التي اطالت عليهم امد ايام الشقاء، وليس انفراد الادباء العراقيين بهذه المزية يرجع الى عوامل جغرافية او ورائية، كلا ! بل الى ان اغلبهم قد حيل بينه وبين ان يكون صريحا في انتاجه الادبي لعوامل مختلفة قد يعرفها القراء، اذا كانوا يعرضون عما فاتهم بصراحتهم في اقوالهم، ومن هذا النفر كان المرحوم الشاعر عطا الخطيب فلقد رشحته الحكومة للنيابة عن الكوت ورشح نفسه عن ديالى فقاز بكرسي النيابة عن المنطقتين. وحين احتدم النقاش داخل المجلس النيابي بان الانتخابات قد جرت بتدخلات حكومية لم يجد المرحوم الخطيب برهانا اقوى من ان يحاجج الحكومة بقوله: كيف لم تتدخلوا بالانتخابات وتوزوروها ولقد فزت بواسطتكم عن لواء الكوت التي لم ارها طيلة حياتي! وقد سبب له هذا القول الصريح ان يحرم من النيابتين فان قانون الانتخاب لا يجوز ان يفوز رجل عن منطقة لا يعرفه سكانها، كما سبق له ان تنازل عن نيابة ديالى تحت تأثير اصدقائه ليفسح المجال امام مرشح ديالى فخامة السيد رشيد عالي الكيلاني الذي فاز من بعده قبل مناقشة المضابط الانتخابية.

ولقد ضاق العيش مرة بالمرحوم معروف الرصافي وهو في دار الخلافة (اسطنبول) فاخذ يتكسب عن طريق العمل بصحيفة تركية تناوئ المبادئ التي يعتنقها ولكنه حين كانت تستثار شجونه من اجل امته العربية كان يرسل القصيد اثر القصيد ليلهب بها احاسيس العرب ويستثير هممهم ويشتم اعداءهم فتتلاقف الصحف المصرية اناشيده الوطنية وتنشر للغايات الوطنية التي يهدف اليها. بل وانه لم يطبع حتى محاضراته التي كان يلقيها في جامعة (آل البيت) حين كان عميدها إلا ما نشر منها في مجلة (الجامعة) التي كان يشرف على اصدارها. ومن المطبوع من هذه المحاضرات نستدل على ان المرحوم المدرس كان مفكرا عميق الغور واسع الاطلاع عصري التفكير قرآني الديباجة.

وعند التوصل الى هذه المرحلة من اتجاهات فهمي المدرس، يجدر بنا ان نتطرق الى حقيقة خفيت على كثير من الناس وقد آن اوان بعثها والاشادة بها.

من المعروف ان الادب العربي لم يزدهر في بقعة من بقاع البلاد العربية كما ازدهر في بغداد، ولهذا تساءل الكثيرون في القاهرة وبيروت ودمشق: ما بال بغداد تفط في سباتها ولم يظهر فيها الكاتب الاديب الذي يضاهي كتاب القاهرة وبيروت ودمشق.

اما الحقيقة التي اردت ان اشير اليها، فهي ان ادباء العراق الذين نبغوا في الجيلين الماضيين قد تقدموا زمانهم فلم يعرف قدرهم ابناء عصرهم من مفكري الاقطار العربية، التي بدأت منذ عهد الاحتلال البريطاني لهذه البلاد. فلقد اصبحوا قليلي الانتاج الادبي بالنسبة لمن يماثلهم من الادباء العرب لان كرامتهم الفوارة جرفتهم نحو السياسة لتحقيق الاماني الوطنية، وابعدتهم عن الانتاج الادبي الصرف الذي تهيئوا له منذ بداية تثقفهم في العهد العثماني، لهذا صار الادباء العراقيون اقل الادباء انتاجا وحتى المجموعتين البليغتين اللتين طبعهما المرحوم فهمي المدرس كانتا تنحوان نحو الاهداف السياسية والوطنية والتي سبق ان نشرتهما الصحف ولكنه اهمل طبع كتبه الادبية والفلسفية والتاريخية وحتى (تاريخ الاستعمار) الذي اوعدنا بطبعه عدل عنه اخيرا لانه كتب بصيغة تاريخية لا تؤدي الى الامال التي يجب تحقيقها لامته وان كان هذا الموضوع يخص الاستعمار الذي آثار كتابة تاريخه للغايات الوطنية التي يهدف اليها. بل وانه لم يطبع حتى محاضراته التي كان يلقيها في جامعة (آل البيت) حين كان عميدها إلا ما نشر منها في مجلة (الجامعة) التي كان يشرف على اصدارها. ومن المطبوع من هذه المحاضرات نستدل على ان المرحوم المدرس كان مفكرا عميق الغور واسع الاطلاع عصري التفكير قرآني الديباجة.

وعند التوصل الى هذه المرحلة من اتجاهات فهمي المدرس، يجدر بنا ان نتطرق الى حقيقة خفيت على كثير من الناس وقد آن اوان بعثها والاشادة بها.

من المعروف ان الادب العربي لم يزدهر في بقعة من بقاع البلاد العربية كما ازدهر في بغداد، ولهذا تساءل الكثيرون في القاهرة وبيروت ودمشق: ما بال بغداد تفط في سباتها ولم يظهر فيها الكاتب الاديب الذي يضاهي كتاب القاهرة وبيروت ودمشق.

اما الحقيقة التي اردت ان اشير اليها، فهي ان ادباء العراق الذين نبغوا في الجيلين الماضيين قد تقدموا زمانهم فلم يعرف قدرهم ابناء عصرهم من مفكري الاقطار العربية، ففي الوقت الذي كان فيه اقبال الشبان العرب منقطع النظير على مؤلفات عباس محمود العقاد الذي يجتر التاريخ وسير الادباء لا لغاية سوى النفع المادي، وعلى مؤلفات طه حسين التي تحوم حول (المعري) باسلوب ساخر في لفه ودورانه، وعلى مؤلفات المازني التي يكتفي بها بالسخرية من نفسه ومن الناس، وعلى مؤلفات (هيكل) التي لم تخرج عن دائرة تراجم السير التاريخية والوصف، واخيرا على مؤلفات توفيق الحكيم الذي سحره حماره واجساد الباريسيات.

هذا في مصر اما في سوريا فلقد توجه معروف الارناؤوط نحو القصص التاريخي، وميخائيل نعيمة نحو التفكير الصوفي.

اما عندنا فمنذ ثلاثين عاما لا يكتب ادباؤنا الا من اجل المطالبة بالحرية، والا من اجل محاربة الاستعمار والمستعمرين واذنابهم واذنالهم، فهكذا عرفنا ابراهيم صالح شكر ومعروف الرصافي وباقر الشبيبي والزهاوي ومحمد الحسين ال كاشف الغطاء وفهمي المدرس. ومن الواضح ان باستطاعة جميع هؤلاء ان ينتجوا ادبا على نمط آداب أرباب الابراج العاجية، ولكنهم سبقوا زمانهم كما وهت وابوا إن يكتبوا بل وحتى اكثر ما نظم البعض منهم إلا من اجل الحرية والتخلص من ربقة الخونة والاذناذ والاقطاعيين وسارقي قوت الشعب.

نحن مدينون بالشيء الكثير لاساتذنا المرحوم فهمي المدرس فلقد كنا في بدء حياتنا الثقافية نتعشق دراسة الادب، ولكن الهزات الوطنية التي ابعدت ادباءنا عن الانتاج الادبي قد صرفتنا بعض الشيء عن الكتب الادبية الصرفة وصرنا نقرأ الصحف المحلية المشحونة بالاخطاء النحوية واللغوية مضطرين، لذا صرنا نجد في مقالات فهمي المدرس البليغة والمرصعة بالايات القرآنية اكبر عوض عما يفوتنا من تتبعاتنا الادبية لذا كنا نحفظ الكثير من مقالاته لكثرة ما نستعيد قراءتها فتختزن في حافظتنا بجانب قصائد الزهاوي والرصافي والشبيبي والشرقي.

وعلى الرغم مما ذكرته عن تأثير الاستاذ المدرس الكتابي فان الحقيقة تقتضيني ان اقول بان قيمته الادبية لا تستحق الخلود للظروف التي بيئتها ولظرف آخر لم اشر اليه وهو ان الاستاذ المدرس كان منذ بدء وعيه الثقافي استاذا في دار الفنون بالاستانة اي ان قيمته الادبية في محاضراته واحاديثه اكثر مما هي في كتاباته، فلقد كان رحمه الله متحدثا لبقًا وكان المفكرون والادباء يحجون الى داره في الشتاء او الى حديقته بالاعظمية في الصيف للاستماع الى ادبه والى التزود من معارفه الغزيرة. ولقد بقي على حاله هذا الى نهاية حياته الطويلة. كان مدرسا اسما وكان مدرساً مهنة، وبقي طيلة حياته على هذه النزعة. ومثل هذا الرجل يحفظ له التاريخ قيمته بين الخالدين وان لم يترك آثارا ادبية تبوئه الخلود وإلا فهل ترك (سقراط) اثراً؟

مجلة (الوادي) لسنة 1954

فهمي المدرس
مـن رواد الفكـر العربـي الحديـث

ناجي الأصيل
باحث راحل

جاءت ذكرى اديب عالم من ادباء العراق وعلمائه فأردنا ان نتحف القراء الكرام بذكريات جديدة عن هذا المفكر العراقي الكبير فاتصلنا بالدكتور ناجي الاصيل رئيس المجمع العلمي واقرب اصدقائه اليه.. فليس يعرف الانسان حق المعرفة غير صديقه وخاصة اذا كان الصديق في مثل علم الدكتور وفضله وادبه، فهو تاريخ يتحرك وموسوعة للتاريخ الحديث عاصرها وتمرس بها.

وجهنا عدة اسئلة للدكتور الاصيل في مكتبه في المجمع العلمي بين زحمة اعماله في اعداد مهرجان بغداد وشؤون المجمع.. عن اول معرفته بالاستاذ فهمي فقال:

كانت اول معرفتي بالاستاذ فهمي المدرس في سنة ١٩١٧ اذ كان استاذا لتدريس الادب العربي وكنت قد ذهبت اليها باجازة.

وكانت استانبول تموج وتمور باحداث العالم وحربها الطاحنة الضروس اذ اتفقت دول الاستعمار على تقسيم الدولة العثمانية المترامية الاطراف والتي كان يحلو لها ان تسميها بالرجل المريض ورغم استبسال جيوش الدولة انذاك من اربع جبهات الا ان القوى الجبارة التي صارعتها كانت اقوى من ان تصمد امامها الدولة العثمانية التي تحارب الدول العظمى بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية باساطيلها وجيوشها ولم تكن تجدي تلك المساعدات التي حاولت المانيا اسناد الدولة العثمانية بها اذ بدأت عالئم الخيبة تهيمن على نفوس الالمان سنة ١٩١٧، ثم كان دخول امريكا بجانب الحلفاء قاضيا على كل امل في النصر ورجحان كفة المانيا والنمسا والدولة العثمانية، مع ان الثورة لشيوعية الكبرى التي انهت حالة الحرب في الجبهة الشرقية بين روسيا والمانيا وجبهة التقاقس مع الدولة العثمانية قد احيت امال المانيا وحلفائها في النصر لمدة من الزمن بيد ان دخول امريكا قتل هذه الامال.

حالة من القلق الذي سيطرت على النفوس والحيرة التي انتابت كل معالم الحياة فيها انذاك وكانت استانبول مركز الثقل ولا يعادل ما تقاسيه مدينة من المدن الاخرى ما قاسته هي رهبة وخوفا وحيرة وقلقا والخوف من المصير المجهول والمحنة المنتظرة.

في مثل هذا الجو تعرفت على الاستاذ فهمي المدرس في استانبول. وكان رحمه الله قد جاء من بغداد الى الاستانة في اخريات ايام السلطان عبد الحميد وكان يحمل توصية الى الشيخ ابي الهدى اصيادي شيخ المقربين اليه ومن ذوي النفوذ الواسع والسلطة الكبيرة على السلطان وعلى حاشيته.

وقد كان يحلو للسلطان ان يجعل جواسيس السلطان كما كان يظن سابقا وبهدوء انسلت يده الى جيبه

حديثه وقال:

وقد روى لي الاستاذ فهمي المدرس انه بعد وصوله الى استانبول بايام قليلة خرج قاصدا دار ابي الهدى الصيادي وكان في العاشر من تموز سنة ١٩٠٨ وفي جيبه التوصية التي ستوصله الى تحقيق امانيه عن طريق ابي الهدى بيد انه رأى شيئا عجيبا في الطرقات رأى جماهير الشعب حانقة صاخبة ثائرة تهتف من اعماق نفوسها: (يشاسون حريت.. يشاسون عدالت.. يشاسون قانون اساسي).

ومعناها تحيا الحرية ولتحيا العدالة وليحيا الدستور.. كان الاستاذ فهمي يحمل التوصية في جيبه فوجد نفسه في دوامة فهو لم يكن يصدق ان مثل هذا الهتاف يخرج ونصف استانبول جواسيس السلطان كما كان يظن

يتحسس التوصية التي كان معهد اماله فيرميها بعد ان يمزقها وينغمر بلا شعور وسط هتافات الحرية والمساواة والعدالة بروح الشباب يهتف مع الهاتفين بحياة الحرية والعدالة والدستور. وبسقوط الاستبداد ويعتلي اول منصة للخطابة فيهاجم عهد السلطان وطغيانه وجبروته.. وقد بقي – رحمه الله – من يومه ذلك يدافع عن هذه المبادئ حتى وافاه الاجل.

هل كان الاستاذ فهمي يعتقد بزوال الدولة العثمانية؟

كان الاستاذ فهمي المدرس مفكرا من طراز مفرد ولا عجب فقد كان ينظر بعيدا الى امور الدولة انذاك وكان يعتقد بان الدولة العثمانية لابد وانها ستخسر الحرب بالنظر لما اصابها من وهن وخور ثم ان طمع الدولة الاجنبية في اراضيها واتفاقهم على تقسيمها ومحاربتهم اياها في جبهات متعددة اسباب تساعد على خسرانها الحرب وقد زاد الطين بلة ان بعض الاتراك انفسهم ساعدوا على هدم الامبراطورية بما قدموا من اساءات نحو العرب وحماقات ارتكبوها ضد شعبهم وامتهم عندما اندوا بالطورانية.

كان الحديث عن الاستاذ المدرس قد اثار الدكتور الاصيل اذ بدأت ملامحه تبسم مرة وتربد مرة اخرى ثم اخذ يحدثنا عن جامعة ال البيت وذكرياته فيها فقال: ان الاستاذ المدرس شخصية فذة فهو عالم واديب امتاز باخلاق نبيلة وسجايا عالية وقد صحبته مدة طويلة لم اسمع منه كلمة رخيصة في انسان حتى في خصومه ورغم معارضته الشديدة لنظام الحكم والملك فيصل فقد كان الملك يقدره ويحترمه على سجاياه النبيلة الفاضلة بل كان يقدمه في امور كثيرة رغم حماسته في سبيل وطنه فبعد حادثة برسى كوكس المعروفة انيطت به امانة جامعة ال البيت.

وعندما كان في استانبول كان يدرس الادب العربي وقد كان من ائمة الفكرة العربية وقادة الشباب العربي الذين كانوا يفدون الى الاستانة ويدخلون الجامعة فقد كانت استانبول انذاك مركز نهضة عربية كبرى فقد تاسس فيها المنتدى الادبي وحزب العهد وغـيـر ذلـك من مؤسسات

الشباب العربي الذين استفاقوا من غفلتهم واكتشفوا انهم عرب ولهم تاريخهم المجيد العريض ، وجلاعن عيونهم ضباب التورانية والتركية المتطرفة فبذل جهدا كبيرا في سبيل تلقين دروسه للطلاب العرب وتنبيههم الى حاضرهم وماضيهم.

ولما افتتحت جامعة ال البيت انتدب لها خيرة الاساتذة مثل الاستاذ عبد العزيز الثعالبي وطه الهاشمي ومنير القاضي وعبد الاله حافظ وغيرهم من الباحثين وقد بذل جهدا صادقا ومشقة في رفع مستواها العلمي وكاز طلابها يدرسون خير العلوم.

بيد ان الاسف يحز في النفس عندما لم تدعها المعارضة تستمر في رسالتها وقطعت عنها التخصيصات. ولما اعتزل الاستاذ المدرس جامعة ال البيت لم يترك المعارضة فقد زود الصحافة بمقالاته السياسية المشهورة والتي كانت من الطراز الاول وقد جمعت في (مقالات) فيما بعد.

وهو شاعر بالسليقة وعالم اديب تظهر سعة اطلاعه وعمق تفكيره في كل ما يكتب وما ينشر وقد نشر عدة كتب باللغة التركية وكانت تعتبر من امهات الكتب في اللغة التركية عن الادب العربي.

كان يبعث العمم في نفوس الاساتذة ويدفعهم نحو العمل فعندما عدت الى العراق في اواخر سنة ١٩٢٥ طلب مني تدريس (علم النفس وما وراء الطبيعة) فاعتذرت لاني لم اجد في اللغة العربية من الكتب ما يكفي لتدريس هذين العلمين الجليلين فما كان منه الا ان قال: كل هذه الكتب الاجنبية موجودة بين يديك وانت وانا موجودان ونعتذر عن العمل وقد كان والحق يقال يساهم في ترجمة الفكرة ووضع المصطلحات لهذه العلوم الحديثة فهو كالبحر العميق.

وقد نشرت هذه المحاضرات في مجلة (الجامعة) وهي مجلة جامعة ال البيت اعدت القاءها على طلاب كلية الشريعة لعدة اعوام مضت وعسى ان اوفق لطبعها بعد مراجعتها وقال انه بسبيل اهدائها الى روح صديقه المدرس فاكبرت فيه الوفاء العربي الاصيل.

ثم استمر الدكتور الاصيل في حديثه فقال: كنا نتدارس الموضوعات النفسية الدقيقة ومن خبراتنا في الحياة متخذين من النفس ساحة تجارب واختبار وكان لبعض الايات القرآنية الكريمة شأن عظيم في انارة الطريق امامنا ثم احببت ان اطلع على نماذج من هذه الايات فقال: من ذلك (ونفس وما سواها فألهمها جورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) ففي هذه الجمل القصيرة المعجزة خلاصة الخلاصة لعلم

كان يبعث العمم في نفوس الاساتذة ويدفعهم نحو العمل فعندما عدت الى العراق في اواخر سنة 1925 طلب مني تدريس (علم النفس وما وراء الطبيعة) فاعتذرت لاني لم اجد في اللغة العربية من الكتب ما يكفي لتدريس هذين العلمين الجليلين فما كان منه الا ان قال: كل هذه الكتب الاجنبية موجودة بين يديك وانت وانا موجودان ونعتذر عن العمل وقد كان والحق يقال يساهم في ترجمة الفكرة ووضع المصطلحات لهذه العلوم الحديثة فهو كالبحر العميق.

النفس والاخلاق واذا نظرت الى ما قبلها (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والارض وما طحاها) يتساءل الانسان لماذا جاء بحث الشمس والقمر والسماء والارض قبل النفس فانا ارى ان اعجوبة النفس الفاضلة العليمة الخسيرة المستنيرة والمطمئنة لا تقل عظمة وجلالا عن معجزة الكون بنظامه وسلطانه وبهائه وقدرته فقد تمثلت المادة بالمعنى في الحالتين فاصبحت وكان المادة هي المعنى

(وتحسب انك جرم صغير
وفيك انطوى العالم الاكبر)

س- الم تحارب الدولة العثمانية القومية العربية؟

من الحق ان نقول انها لم تكن في البدء تحارب القومية العربية بصورة مباشرة انما كانت تغرس في النفوس الدعوة الى العثمانية لذلك لما تداعى الاتراك الى الطورانية نبهت دعوتهم الحس العربي للاعتزاز القومية العربية.. فعندما اخذ الاتراك يعتزون بالقومية الطورانية ويبتعدون عن العثمانية اخذ العرب يعتزون بالقومية العربية ويتمسكون بها وزاد في يقظة الحس العربي تلك المجازر التي اقترفها جمال باشا السفاح ضد العرب في سوريا ولبنان وقتل فيها خيرة الشباب العربي في وسط الساحات العامة دون ان يراعي حرمة او صلة بين العرب والاتراك . يضاف الى ذلك كله وجود طائفة ممتازة من ابناء العرب في كليات استانبول الملكية منها والعسكرية عملوا جاهدين على ايقاظ الشعور القومي في النفوس بعد ان اتصل قادتهم بتيارات الفكر الاوروبي القومية وكان على رأس هؤلاء الرجل الكبير والثائر الحر عزيز علي المصري الذي كان يمثل الحماس العربي المتدفق تمثيلا صادقا. وكان الخوف من استيلاء الدول الاوروبية الكبرى مثل بريطانيا وفرنسا على البلاد العربية سببا في شل حركة العرب بعض الوقت.

ومن طريف ما حدثنا به الاستاذ الاصيل عن مكانة الاستاذ فهمي المدرس قال:

ان الثعالبي الزعيم التونسي الذي كان في بغداد وقد كان رحمه الله عالما وفيلسوفا اسلاميا وله منزلة محترمة عند الملك فيصل كان في يوم من ايام زيارته للملك فيصل قد عاتبه على مخاصمة الادباء وعدائه لهم وعرج على الرصافي قائلا كيف تسمح لك نفسك ان تخاصم شاعرا كبيرا كالرصافي والشعراء قادرون على ان يهدموا العروش ورجاء ان يسترضيه وان يقربه قبل ان يستفحل بينهما الخصام.

فاجابه الملك فيصل انني غير مقصر بحق الادباء والشعراء والدليل انني رغم خصومتي للاستاذ فهمي المدرس فقد بعثت اليه من يقنعه لمقابلتي وعرضت عليه ان يكون عضوا في مجلس الاعيان تقديرا مني لمكانته الادبية لكنه رفض.

ومن الطرائف التي رواها الدكتور الاصيل عن جرأة الاستاذ فهمي انه قابل في احد دواوين بغداد نوري السعيد وكان رئيسا للوزارة فبادره نوري السعيد قائلا:

كيف حال استاذنا؟

فاجابه على الفور: موزين ليش مولانا؟ والله اقول الصدق: كلما دنزرع ورد ديطلع شوك!

فلم يرد نوري السعيد وجلس.

وقابله مرة المرحوم عبد المحسن السعدون متسائلا عن حاله وصحته فقال له: كلما تشكل الوزارة تغمض عينيك وتمد يدك الى الشارع فكل من تصادفه يصير وزيرا فلماذا لا تمد يديك الى محلتنا؟

ومن طرائفه التي تدل على ان اخلاصه لوطنه وحبه لوطنه لايمنعه من التضحية والمشاركة في الحفل الوطني رغم علمه بفشل العمل الذي يقوم به فهو بعد ان استمع للبيان المفاجئ الذي اذاعه السيد رشيد عاني الكيلاني من الراديو باعلان حركته المعروفة وكان الاستاذ في بيت الدكتور الاصيل فسأله: ما رأيك يا استاذ؟

فقال له قضية ايام معدودات خمسة ايام ستة ايام مع ذلك عسى ان يكون فيها الخير، وفي اليوم الثاني سمع المرحوم فهمي المدرس يخطب من الراديو ويهاجم الانكليز ونوري السعيد وعبد الاله بحماسة منقطعة النظير ولما انتهى من خطابه ذهب الى بيت الدكتور الاصيل فسأله الدكتور: ما هذا يا استاذ كيف توفق بين خمسة ايام وستة ايام وبين هذا الاندفاع العظيم الذي سمعناه من الراديو فقال له:

يا اخي هذا هو! انها فرصة عرضت على لابث مبدأي واذود فيها عن عقيدتي واهاجم اعداء امتي وقومي فيجب ان اغتنمها وليس الشرط ان تنجح القضايا الوطنية حالا انما المهم التضحية بالقضايا الفردية فاذا انتهت حركة رشيد عالي سنعود ثانية الى عراكنا مع نوري السعيد لاني واثق من نصرهم لان قواعدهم في البلد وهذه الاردن قريبة بجيشها لنصرة الانكليز فلم لا اشارك في الدفاع عن كرامة وطني وقومي وامتي وليكن ما يكن بعد ذلك. واستطرد الحديث عن علاقته بزعماء البلاد وموقفه منهم موقف النصيح الذي لا يخشى لومة لائم فقال:

كان بين المرحوم ياسين الهاشمي والمدرس صلة ود وكلاهما يقدر صاحبه ويحترمه ويجله لمواقفهما الوطنية وجراة كل واحد منهما في الحفل القومي والعربي.. بيد ان المرحوم الهاشمي استبدت به الفردية واعترته نزعات غريبة في الحكم المطلق وطفحت نفسه بالغرور عندما رأى الشعب (قبل عليه احتضنه وصفق له اكبارا لمواقفه الوطنية، غير ان هذا الاقبال وهذا الاكبار دفع بالرجل للغرور وظن انه سيخلد في الحكم حتى انه صرح في خطابه ان مصلحة العراق تقتضي بقاءه في الحكم عشرة سنوات.

وكانت من عادة الهاشمي زيارة الاستاذ المدرس فزاره قبل الانقلاب العسكري الذي قام به الجيش العراقي بقيادة المرحوم القائد بكر صدقي باسبوع واحد فقال له:

يا باشا يؤسفني ان اقول لك ان الرأي العام بدأ يبتعد عنك فنظر اليه ياسين الهاشمي باستغراب شديد وقال له اي رأي عام تعني؟

فقال المدرس الراي العام العراقي..! فاجابه باستخفاف.. واين هو هذا الرأي العام الذي تتحدث عنه؟ فقال له بالم مرير:

اسف يا باشا ان اسمعك تستخف بالرأي العام.. واضاف الاستاذ المدرس وقد حدث الانقلاب بعد اسبوع واحد واطاح بحكومة ياسين الهاشمي.. الذي كان ولاشك من قادة الرجال والزعماء وقد خسره العراق مع الاسف الشديد ولما شعرنا باننا اطلنا في الحديث استاذنا بالانصراف شاكرين له هذه الصورة الحية التي رسمها لنا لنكون نموذجا لشباب العرب اليوم.

لقاء أجرته مجلة الأيام مع ناجي

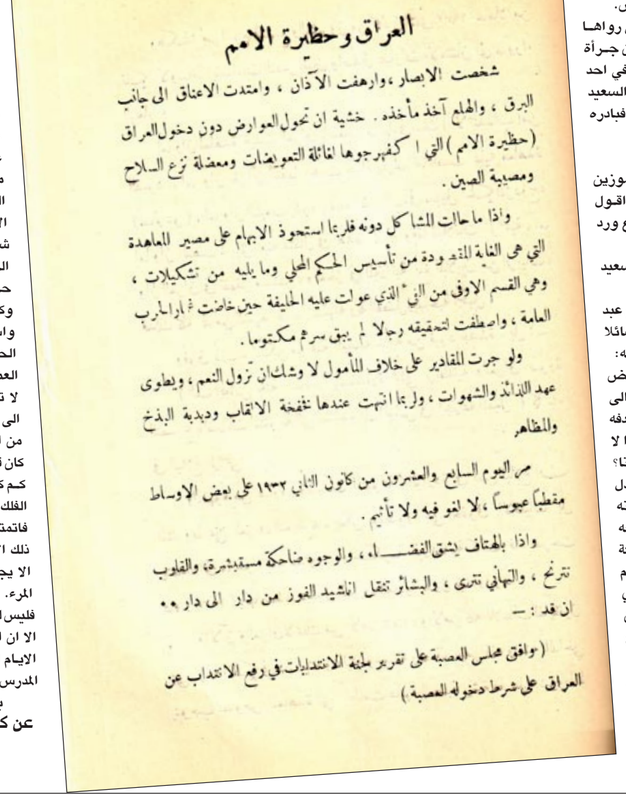

العراق وحظيرة الامم

شخصت الابصار ،وارهفت الآذان ، وامتدت الاعناق الى جانب البرق ، والهلم آخذ مأخذه . خشية ان تحول العوارض دون دخول العراق (حظيرة الامم) التي اكفهرجوها لفائلة التعويضات ومعضلة نزع السلاح ومصيبة الصين .

واذا ما حالت المشاكل دونه فلربما استحوذ الابهام على مصير المعاهدة التي هي الغاية المقصودة من تأسيس الحكم الملكي وما يليه من تشكيلات ، وهي القسم الاوفى من الني الذي عولت عليه الحليفة حين خاضت غمار الحرب العامة ، واصطفت لتحقيقه رجلا لم يبق سرهم مكتوما .

ولو جرت المقادير على خلاف المأمول لا وشك ان تزول النعم ، ويطوى عهد اللذائذ والشهوات ، ولربما انتهت عندها نفخة الاقتحام وديدبة البذخ والمظاهر

من اليوم السابع والعشرون من كانون الثاني ١٩٣٢ على بعض الاوساط مقطباً عبوساً ، لا لغو فيه ولا تأثيم .

واذا بالهتاف يشق الفضـــاء ، والوجوه ضاحكة مستبشرة، والقلوب تترنح ، والتهاني تترى ، والبشائر تنقل الناشيد الفوز من دار الى دار ..

ان قد : —

(وافق مجلس العصبة على تقرير لجنة الانتدابات في رفع الانتداب عن العراق على شرط دخوله العصبة)

هكذا عرفت فهمي المدرس

عرفت الاستاذ فهمي المدرس في مختلف ادوار حياته، بل بتعبير اصح عرفته في مختلف ادوار حياتي انا اتذكره جيدا في عهد طفولتي حينما كان يزور والدي في فترات متقاربة فكنت اعجب به اعجابا يمازجه التهيب كما (مما) كنت اراه من احترام له ومعاملته كأنسان يمتاز عن الاخرين.

ثم واكبت مجلة في عهد شبابي حينما كان يزور اخي رؤوف باستمرار، فكنت استمع الى طرائفه الادبية ونكاته الحلوة باعجاب، وقد تعلمت منه الشيء الكثير كأستاذ بل كأنسان خير الحياة مرها وحلوها، اقول مرها وحلوها لان الاستاذ فهمي كانسان حر ذاق من مر الحياة اكثر بكثير من حلاوتها. ثم زاملته صديقا ورفيقا في العمل حيث كنا نعالج معا مشاكل البلد ومحنها فكان في ذلك الدور استاذا كبيرا بالنسبة لي في الادب وفي السياسة على السواء.

لم ار شخصا يرتجل النكات اللاذعة والمستظرفة على مستوى رفيع كالاستاذ فهمي المدرس، كما اني لم ار كاتبا سياسيا مثله يتعمق فيما يكتبه ويمحصه تمحيصاً دقيقا ، بحيث يزن كل كلمة فيما تتطلب اللغة والمعنى ودرجة تأثيرها النفسي على الجماهير.

لذلك جاءت مقالاته المشهورة التي كان يكتبها في حقبة الثلاثينات آية في الابداع، فكان كل منها يحز السلطة على طغيانها – هزا عنيفا وكان في الواقع مسمارا في نعش ذلك العهد.

الاستاذ فهمي المدرس شخصية فذة قل ما يجود الزمان بمثلها، ذكاء حاد وعواطف جياشة وكفاءات ممتازة وخبرة واسعة في مجالات الحياة واخلاص في العمل ووطنية ديناميكية لا تعرف الكلل، بالاضافة الى جاذبية ساحرة لا يفلت من اسرها اي انسان مهما كان قوي الشخصية.

كم كنت اتمنى لو كان الفلك يدور بعكس ما يدور، فاتمتع بساعة من ساعات ذلك الانسان.. ولكن هيهات الا يجود الزمان بما يتمناه المرء.

فليس لي اذن تجاه هذا العجز الا ان اذرف الدموع على تلك الايام الحلوة من ايام فهمي المدرس.

بغداد في ١٢ آب ١٩٦٥

عن كتاب من اوراق كامل الجادرجي (دار الطليعة)

فهمي المدرس من رواد المقالة في العراق

عبد الجبار داود البصري
ناقد أدبي راحل

اشارة...
ان الذين مارسوا الادب والصحافة في بداية هذا القرن حتى منتصفه، كثيرون وقد تعارف مؤرخو ادبنا الحديث ودارسوه على تصنيفهم حسب النشاط السائد في حياتهم وبناء على ما اشتهروا به.
فالرصافي والشبيبي والزهاوي وانستاس ماري الكرملي وعبد الوهاب النائب الشهرستاني، ومحمد شكري الالوسي علماء دين ورجال لغة ومحمد سليمان فيضي ومحمود السيد وسواهما قصصيون او روائيون.
ورفائيل بطي ونوري ثابت وتوفيق السمعاني وسلمان الصفواني صحفيون. وكامل الجادرجي وعبد القادر البستاني ومحمد جعفر ابو التمن سياسيون.
اما فهمي المدرس وابراهيم صالح شكر، وابراهيم حلمي العمر فقلبت المقالة الادبية والصحيفة على نشاطهم الثقافي.. فهم روادها..
والريادة قد لا تعني الاولوية دائما وانما تدل على الكشف والبيان.
ومع هذا وذاك فربما كان من الدقة والموضوعية ان نقول "من رواد المقالة الادبية".

الرجل:
١٨٧٣: ولد فهمي عبد الرحمن الخزرجي المدرس في بغداد من اسرة ذات جاه وثروة، قدم عميدها من الموصل ثم استقر في بغداد. ويعود لقب الاسرة الى احد اصوليها وهو احمد الحافظ الذي كان اول مدرس في المدرسة السليمانية ببغداد.
١٩٠٠: عين مترجما في ولاية بغداد ومعاونا لمدير مطبعة الولاية.
١٩٠١: اصبح مديرا للمطبعة ورئيس تحرير جريدة الزوراء بقسميها التركي والعربي وعهد اليه التدريس في المدرسة الاعدادية الملكية وعضوية مجلس معارف الولاية ونظارة مدرسة الصنايع.
١٩٠٥: حجر عليه في داره ثم نفي الى جزيرة رودس ببحر سفيد على اثر وشاية رفعت عنه للسلطان عبد الحميد ثم عين مديرا لمطبعتها.
١٩٠٦: اعيد الى منصبه السابق في بغداد.
١٩٠٨: سافر الى الاستانة يحمل توصية للشيخ ابي الهدى الصيادي

ولكنه واجه تظاهرات الجماهير التركية فانضم اليهم ومزق التوصية.
١٩٠٨: عين استاذا في كلية الالهيات بجامعة دار الفنون، وكلية الاداب وكلية اللغات في الاستانة.
١٩١٣: اوفد الى الشام لدراسة المشاكل الجامعية والتربوية هناك.
١٩٢٠: استدعي من قبل الملك فيصل الاول الذي تتلمذ عليه ليعمل معه قلبي الدعوة وسافر الى الشام.
١٩٢٠: غادر الشام نحو اوروبا في شهر تشرين الاول.
١٩٢١: عين كبيرا لامناء الملك فيصل الاول في العراق.
١٩٢٢: اقيل من منصبه بناء على توصية من المندوب السامي البريطاني بيرسي كوكس وعاد الى السيد ناجي عليه في داره لايزوره الا الجريء من اصدقائه.
١٩٢٤: كلف بتأسيس اول جامعة في العراق (جامعة آل البيت) واسندت اليه رئاستها.
١٩٢٦: تزوج في شهر آذار.
١٩٣٠: الغيت الجامعة واقيل من منصبه وانضم الى صفوف المعارضة في الحزب الوطني.
١٩٣٢: ابعد مع السيد روفائيل بطي الى الشمال بموجب نظام دعاوي العشائر على اثر مقال "الاستفتاء ومصيره".
١٩٣٤: استقال في شباط من الحزب الوطني وكان عضوا في هيئته المركزية.
١٩٣٥: عين مديرا عاما للمعارف في ١٥ آب واستقال في ٢٨ منهز
١٩٣٦: اختير مديرا لدار العلوم العربية والدينية في الاعظمية في ٩ ايلول.
١٩٣٨: تخلى عن ادارة الدار المذكورة.
١٩٤١: ايد حركة رشيد عالي الكيلاني وساهم بالدعوة لها من اذاعة بغداد وظل يواصل خطبه الحماسية حتى بعد قصف المحطة ونقل مرسلاتها الى دار سرية في الاعظمية.
١٩٤٤: توفي في بغداد ١٤ آب ودفن في مقبرة الشيخ عبدالقادر الكيلاني.

الاديب والصحفي:
١٨٧٣: ولد في بيت علم وادب وكان والده القاضي الشرعي الدائم في محكمة بغداد التجارية استاذه الاول، ثم واصل تحصيله في المدارس العلمية وحلقات المساجد على أيدي عبد السلام الشواف وعبد الرحمن القره داغي واسماعيل ونعمان الالوسي ومحمد سعيد النقشبندي ومحمود شكري الالوسي.. وقد تعلم المدرس العربية والتركية والفارسية ثم الفرنسية.
١٩٠٠: عين رئيسا لتحرير جريدة الزوراء وكان اضافة الى ذلك يتولى الوعظ والارشاد وخاصة في جامع الوزير وجامع السراي ثم اختير عضوا في مجلس المعارف وناظرا لمدرسة الصنايع.
١٩٠٦: عاد من منفاه في رودس وانتخب عضوا في مجلس اصلاح المعارف.
١٩٠٨: غير زيه الديني في الاستانة وارتدى البدلة الافرنجية وانتخب استاذا ومحاضرا في كلياتها واستمر في عمله اثني عشر عاما وكان ناجحا في عمله فقد روى السيد ناجي القشطيني انه: اذا حان وقت القاء المدرس محاضراته يترك اكثر الطلاب والاساتذة دروسهم ويهرعون الى الاستماع اليه لانه يفسر الامالي الشعرية والنثرية باللغة العربية اولا ثم باللغة التركية ثم بالفارسية والفرنسية.
١٩٠٩: تخلى عن محاضراته في دار الفنون للشاعر معروف الرصافي.
١٩١٣: رفع تقريرا عن مشاكل المؤسسات العلمية في الشام وخاصة كلية الحقوق ومدرسة الصنائع، والكلية الوطنية، والكلية الاميركية في بيروت، وعن حالة المعارف في دمشق.
١٩٣٠: نشر بيانا عن جامعة آل البيت تناول فيه الظروف التي احاطت بها منذ تأسيسها الى تاريخ اغلاقها.
١٩٣٠: انضم الى الحزب الوطني الذي تزعمه جعفر ابو التمن وامد جريدة الاخاء الوطني لسان حال الحزب بمقالات تعتبر نموذجا عاليا للادب السياسي كما عمل في صحف البلاد والعالم العربي والاستقلال.
١٩٣٥: استقال من منصب مدير المعارف العام وطفق ينشر مقالات اضافية حول المعارف وضرورة اصلاحها.
١٩٤٤: قبيل وفاته ابدى رأيه في كتاب "رسائل التعليقات" لمعروف الرصافي دافع فيه عنه وبرأه من تهمة النيل من الاسلام.

النتاج:
يتبين لنا مما تقدم ان حياة المدرس الثقافية بلغت ما يقرب من نصف قرن اعتبارا من تعيينه في جريدة الزوراء وحتى يوم وفاته.

وهذه الفترة الزمنية ليست قليلة، ولا فقيرة بالاحداث والمعطيات. فخلالها انهار الحكم العثماني في الداخل والخارج، ووقعت الحربا العالمية الاولى، وضطرمت ثورة العشرين في العراق، وتأسست الملكية، وناضل الشعب ببسالة ضد الاحتلال ثم الانتداب وكانت حركة بكر صدقي ، وحركة الاثوريين، والحركة الكردية، والحرب العالمية الثانية ثم ثورة ٢ مايس.
يضاف الى ذلك سرعة سقوط الوزارات وتشكيلها، وتأسيس الاحزاب وانفراطها وسيولة العضوية الحزبية بين الساسة والمثقفين وكثرة مناورات السلطة والعشائر والانجليز.
ولم يكن المدرس بمعزل عن هذه الاحداث ولكنه كان في صميمها فلقد شهد مظاهرات الدستوريين الاتراك وساهم فيها.. وناضل مع العرب من اجل وطن عربي وساهم في منظماتهم السرية وكان كبير امناء الملك في اول عهد العراق بالملكية، وكان مستهدفا من قبل الانتداب ، وكان مع المعارضة حين كانت المعارضة تخوض اعنف معاركها ضد معاهدة ١٩٣٠، وكان داعية من دعاة ثورة ٢ مايس في اوج توهجها.
والمفروض ان يكون نتاج هذا الرجل وهذه الاحداث نتاجا غنيا خصبا ولكن الذي يؤثر عنه لايتناسب مع الزمن ولا مع اهمية الرجل ومكانته في المجتمع والسياسة والتربية والثقافة. ان قائمة مؤلفاته ونشاطه الثقافي لا تحتوي الا على ما يلي:
١- مجموعة من المقالات في جريدة الزوراء – لم تجمع بعد ولم تحقق.
٢- مجموعة من المحاضرات القاها على طلبته في الاستانة وقد جمعت في ثلاث كتب.
أ- تاريخ ادبيات عربية وهو كتابات.. نشرا في الاستانة، باللغة التركية والشواهد باللغة العربية.
ب- حكمت حقوق اسلامية: مجموعة محاضرات في الفقه والشريعة.
٣- مقالات نشرها في صحيفتي شهبال وثروت فنون التركيتين.
٤- تقرير عن المؤسسات الثقافية في الشام.
٥- بيان موجز عن جامعة آل البيت طبع سنة ١٩٣٠ واعاد طبعه الدكتور يوسف عزي الدين ملحقا بكتابه عن المدرس.
٦- مقالات نشرها في صحيفتي شهبال وثروت فنون التركيتين وقد طبعت في ثلاثة اجزاء.
طبع الجزء الاول سنة ١٩٣١ باشراف محمد ناجي القسطيني ورفائيل بطي وعبد القادر الزهاوي وطبع الجزء الثاني سنة ١٩٣٢ باشراف اللجنة السابقة ايضا وطبع الجزء الثالث سنة ١٩٧٠ باشراف السيدين عبد الحميد الرشودي وخالد محسن اسماعيل.
٧- فلسفة المواريث في الاسلام/ محاضرات القاها على طلبة جامعة آل البيت سنة ١٩٢٨.
٨- بحث في الديانة الزرادشتية وهو تكلمة لمحاضرات طه الهاشمي في موضوع الديانة الفارسية التي القاها على طلبة جامعة آل البيت.
ومن هذه القائمة تبدو المقالة اشبه بالايقاع في حياته الثقافية.. كتبها في بدء نشاطه، وكتبها في عنوان شبابه، وكتبها وهو في قمة مناصبه ومسؤولياته، وكتبها وهو متقاعد بعيد عن معترك السياسة والمسؤولية.
ويمكن تقسم نشاطه الى اربع مراحل:
المرحلة الاولى: الصحفية (١٩٠٠ –١٩٠٨) .. ولعل بعض ما يؤخذ على جريدة "الزوراء" يؤخذ عليه في هذه الفترة باعتباره رئيسا لتحريرها فقد قيل عنها انها كانت مضطربة الاسلوب ركيكة الصياغة، كثيرة الغلط وقد اسف الكرملي في عام ١٩١١ ان تكون الجريدة الرسمية لولاية بغداد بهذه "الصورة الدنيئة" وفهمي المدرس في مرحلته الاولى كان متأثرا بدراساته المسجدية وما تلقاه من علوم "الجادة" وتتكون تقريبا من :
الاجرومیه وقطر الندى وشذور الذهب والالفية في النحو
وابن الحاجب في الصرف
ومراقي الفلاح في الفقه
وتفسير البيضاوي والنسفي والزمخشري
وموطا مالك وصحيح مسلم والبخاري الحديث
والايساغوجي في المنطق
والمختصر والمطول للتفتازاني في البلاغة
وشرح الزينية في الفرائض.
وكان مظهر المدرس في هذه الفترة يتطابق مع مخبره بالرغم من ميله الى التجديد في التفسير والفقه.. وادبه في هذه الفترة غير متداول.
المرحلة الثانية: التعليمية (١٩٠٨ – ١٩٢١) مارس التدريس في كليات الشرق واساليب الاستعمار الامية وافاتها
فلسطين بين الوعد والوعيد
الاسلام بين الشرق والغرب
العراق بين الموت والحياة الحرة
المدينة ودين الاسلام
... الخ..
ومن تامل هذه الاحصائية ان ابرز الموضوعات التي عالجها قضايا السياسة الداخلية للعراق – الوحدة العربية والوطن العربي – الاسلام والمجتمع الشرقي – فلسطين – التعليم والتربية الوطنية – الادب والشعر.
وقد تأخذ معالجته لهذه الموضوعات شكل مسلسلة متتالية متتابعة كما في مسلسلة "الاخلاق بين العرب والغرب" او "النهضة في الشرق وروح الاجتماع " او "الحديث عن المعاهدات".
ويقال ان المصدر الرئيسي لاراء المدرس في مقالاته ما يطرحه زواره من المفكرين والادباء حيث كان يصغي اليهم ويسجل ملاحظاته وينقل طرفا مما يذكرونه حتى اذا انفض الندى خلا الى نفسه ينقي تلك الاراء والملاحظات ويستخرج منها فكرة مركزة ويكتب مقالة عنها .. ولعل هذا بعض اسباب شعبية مقالاته وقربها من نفس القراء وتجاوبهم معها لانها منهم واليهم، ومن مزايا مقالاته كذلك اناقة الالفاظ وتناسقها وانسجام تركيبها واختيارها اختيارا موفقا كقوله عن المعاهدات:
تا الله لقد سئمنا المعاهدات ونيولها، والمقاولات وعقودها، والمواعيد الخلابة والاساليب الانتدابية، التي تجعلك تفكر وتنطق، وتعمل وتدين بدين غيرك وبشعور غيرك، وبلسان غيرك، ولمصلحة غيرك وتحمل نفسا غير نفسك، فتقاوم وتكافح، وتعادي وتطعن، وتلعن نفسك وانت لا تدري.
الاستعمار يربك الشيء ويرغمك على قبوله بالحديد والنار.. والانتداب يربك الشيء بخلافه ويجعلك من تلقاء نفسك تدافع عنه دفاع المستميت معتقدا بانه هو .. فالاستعمار الصريح خير من الاستعمار المخلوع عليه خلعة الانتداب او الاستقلال. والعاقبة وان كانت واحدة الا انك في دولة الاستعمار تموت وانت عارف بدائك ودوائك، وفي دولة الانتداب تموت ميتة جاهلية بائسا وشقيا ولكنك معتقد بالسعادة والرفاة والاول يخلف غاندي والثاني يخلف.. ولله في خلقه شؤون.
ومثل هذه المقالة لا تمتاز باناقة اللفظ فقط ولكنها تمتاز بدقة العبارة، والقصد في الصياغة.. فهو يعرف متى يلحق الكلمة بنعت، ومتى يجردها منه، ويعرف لماذا يكررها ولماذا يفردها؟ ويعرف في اي مكان يورد هذا المصطلح وفي اي مكان يعتذر ايراده دون التفات الى الضرورات الشكلية من موازاة وتعادل وتضاد بين الجمل ومن امثلة ذلك قوله:
ليس الخطر مقصورا عليكم لتنحلوا عذرا من الاعذار وانما الخطر عام تخافه الامة في حاضرها ومستقبلها والانسال الاتية جيلا بعد جيل، وليس من حقكم ان تحكموا بالق على النطف التي لم تخلق، وانتم تتقاضون من صندوق الامة اجركم، والاجر ممتص من دم الفلاح ومن عرف جبينه – على ما تعانيه الامة من بؤس وشقاء – ولكم من ماضيكم ومن اسلافكم عظة وذكرى، فضعوا ايديكم على ضمائركم واعملوا التاريخ نصب اعينكم واعملوا على خيركم وخير ابنائكم واجدادكم. ومن عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها.
ففي هذا المثال يرد على ذهن الكاتب ولسانه ان الخطر العام يشمل الماضي والحاضر والمستقبل فبعد الازمان الثلاثة ولكن المدرس كان واعيا لما يقول فلم يورد في بدء الشاهد ذكر "الماضي" لان الخطر الذي يخيف لايمتد الى الماضي وليس في قدرته ان يخيف الاسلاف اما الدعوة الى عموم الخير فتصرف الى اليوم والغد والامس ولذلك قال "خيركم وخير ابنائكم واجدادكم" ولو ورد ذكر الاجداد في بدء العبارة لكان دليلا على تسرع وسطحية في الفكر اما ورود اللفظة بعد الابناء في تعداد الخير فهو دليل على العمق والخروج من دائرة ضيقة الى دائرة اوسع، ومن المحسوس الى المجرد..
ومثال آخر قوله:
ايها العرب الامجاد، ان العراق في هذه الساعة الرهيبة يخوض غمار معمعة حاسمة: اما الموت او الحياة الحرة.. فجردوا سيوفكم، وشدوا الوثق تحت لواء الحق المغصوب والحرية المهانة ، والاستقلال المهضوم، واجعوا نارا حامية تصلوا بها طغيان الفطرسة والكبرياء والجبروت يعزم فهار، وارادة جبارة، وايمان كامل، واتكال على الله احكم الحاكمين، ولا تهنوا ، ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين.
ففي هذاالشاهد نجده يصف حيث ينبغي الوصف ويكتفي باللفظ حيث يتحتم هذا الاكتفاء مراعيا في ذلك دقة العبارة.
فالعرب وصفهم بالمجد، اما العراق فلا صفة له لانه يمر في مرحلة لم تنضج نتائجها بعد.
والحياة وصفها بالحرية اما الموت فلا صفة له لان الموت موت. والسيوف والوثاق لم توصف ولكن الحق والحرية والاستقلال وصفت بالمغصوب والمهانة والمهضوم لتعطي تبريرا لتجريد السيوف وشد الوثائق.
والغطرسة والكبرياء والجبروت لم توصف لانها لا تحتاج اليه اما العزم والارادة والايمان فوصفت بالقهر والكمال لان هذه الصفات ضرورية لتكون موصوفات فعالة.
وامتاز المدرس بخلقية عالية فكانت الفاظه مهذبة حتى في احلك المواقف التي يجتازها بينما لا يتعفف غيره من استعمال اقذع النعوت واردا الصفات يقذف بها خصمه.. فمما قاله يرد على بعض من اتهمه في عرضه ونسبه ما يلي:
"واطرف من كل ما تقدم قول الكاتب النزيه، استاذ البلاغة.. انه سوف يرى من هو فهمي المدرس ومن ابوه ومن جده.. الى آخر ما هنالك مما هو معروف في لغة محلات "العوام" فهل جعلت "الحصانة النيابية" لحماية هذا النوع من الادب؟ ام من الفضائل الخلقية التي يأمرنا بها الدين من كرامة الاموات وازعاج ارواحهم المطمئنة الناوية في جوار الله، المنقطعة عن هذا العالم التي لا تنتظر من الاحياء غير الترحم والدعاء؟! اما اسلاف "فهمي المدرس" فتلك مراقدهم في "المدرسة السليمانية" في غرفة مشرفة على الطريق لهم شأنهم وعلومهم وتاريخهم يعرفهم فضلاء البلاد والفضل يعرفه من الناس ذووو.. الخ..
ومن مزايا اسلوب المدرس ولعلها راسب من رواسب الادب في القرن التاسع عشر ظاهرة "التطعيم" واعني بها تزيين المقالة بشواهد من الآيات القرآنية والامثال الشعبية وابيات الشعر السائرة، ويمكن ملاحظة ذلك فيما تقدم من الشواهد. واخيرا فان المدرس وهو بظاهرة المقارنات وايراد الاضداد التي تتكامل فيما بينها دون ان تتناقض كقوله يصور حالتي فقر وغنى ، شقاء ونعيم:
في جانب الكرخ وفي شرق العاصمة اكواخ متداخلة منتنة تخالها من بقايا مرابط الانعام، على عهد عاد وثمود، لولا انها تعوم في ماء اسن تعلوه خضرة وتطفو على وجهه الملايين من الحشرات السامة يتصاعد منها الدخان الكريه فيمتزج بالهواء ويعم الجوانب والانحاء يأوي اليها نفر من اخواننا البؤساء الذين قدر لهم ولنسائهم ولاطفالهم – على ما بهم من ضرر – ان يلفظوا انفاسهم المعدودة في عاصمة الرشيد وفي عهد الاستقلال التام وبمشهد من زعماء النهضة.. بين الجراثيم الفتاكة وبين الروائح الكريهة يمسون ويصبحون في بيئة موبوءة لا تفارقها الاقذار، تغلي مضاجعهم كغلي الحميم وان يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي البطون. وعن اليمين والشمال قصور مزخرفة فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين يمرح في نعيمها المترفون بعير حساب واذا مروا حولهم في الغدو والاصال غضوا الطرف وسدوا المنخرين وحفت بهم سيارات مقنعة فاقع لونها من الطراز الاول تلمع لمع الشهاب تجللها الحشمة والابهة وتحف بها الشمخرة والكبرياء، لا يلوون على احد، ولا تأخذهم الرأفة ولا يخشون لومة لائم..

من كتاب رواد المقالة الادبية في الادب العراقي الحديث
بغداد 1975

في ذكرى رحيل فهمي المدرس

صوت من العشرينات يدعو الى: استقلال العراق بعيدا عن الهيمنة البريطانية

* أول رئيس لأمناء البلاط الملكي يهاجم الملك ويدعو لإقامة الجمهورية

ملف نشرته مجلة (الف باء) من

اعداد: رشيد الرماحي

مر الاثنين الماضي الذكرى الرابعة والثلاثون على رحيل فهمي المدرس (١٨٧٣ – ١٩٤٤) الذي يعتبر من المع الكتاب السياسيين العراقيين الذين برزوا في الميدان السياسي منذ اعلان الدستور العثماني والى ما بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية. كما كان اول رئيس للامناء في بلاط الملك فيصل الاول الذي فجر الصراع بين الحكم الاهلي في بداية تأسيسه مطلع العشرينات، وبين القوى الوطنية التي كانت تدعو لاستقلال ناجز بعيد عن الهيمنة الاستعمارية البريطانية..

ومن الغريب ان ذكرى وفاته هذا العام تصادف نفس اليوم الذي رحل فيه الى رحاب الله كما ترويه شاهدة القبر الرابض في مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني فتقول (هو الباقي انتقل الى جوار ربه المغفور له امين جامعة آل البيت سابقا الاستاذ الكبير فهمي بك المدرس وذلك ليلة الاثنين ١٤ آب ١٩٤٤ الموافق ٢٤ شعبان سنة ١٣٦٣ هـ. الى روحه الفاتحة).

ولعل السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا هذا الملف عن فهمي المدرس

ان التعريف بفهمي المدرس للجيل الجديد، وتقييم دوره بعد مرور ٣٤ سنة على وفاته، ينطوي على مغزى تقدير الرجال الذين خدموا الحركة الوطنية بصدق، وساهموا في هذا الميدان مساهمة جادة ومخلصة تستحق الثناء والتقدير.

والمدرس واحد من هؤلاء لعب دوره في مختلف المواقع التي شغها كاول رئيس لامناء البلاط الملكي في مطلع العشرينات او عندما ترأس جامعة آل البيت او يوم ترك الوظائف وانضم الى الحزب الوطني بقيادة جعفر جلبي ابو التمن وجرد قلمه يهاجم الانتداب البريطاني ويكشف النقاب عما ينطوي عليه من غمط لحقوق الشعب.. لهذه الاسباب، ولاسباب اخرى يكون الرجل جديرا بان نهتم بذكراه ونسعى للتعريف به للجيل الجديد ونقيم دوره قدر المستطاع!

مثقف العشرينات:

× وما دمنا في بداية الحديث عن فهمي المدرس، لابد ان نتساءل عن سر اختياره اول رئيس لامناء بلاط الملك فيصل الاول، وكيف تطور الخلاف بينه وبين الملك حتى كادت تحدث ازمة سياسية عراقية بريطانية بسببه!

– يقول السيد خيري العمري: ربما وقع اختيار الملك فيصل الاول على فهمي المدرس ليكون اول رئيس للامناء في البلاط لاسباب عديدة منها ما كان يتميز به الرجل من مكانة ادبية وعلمية منذ العهد العثماني باعتباره واحدا من العراقيين القلائل الذين برزوا في الاوساط العلمية فتبوأ مركزا مرموقا في جامعة الاستانة وصار احد الاساتذة فيها مما كان ينظر اليه العراقيون بصورة عامة، والبغداديون بصفة خاصة باعتزاز.

× وكان وجود المدرس في هذا المنصب وهو وثيق الصلة والعلاقة بالاوساط الوطنية يجعل البلاط في تلك الفترة، وبتشجيع منه مفتوح الابواب امام العناصر الوطنية لذلك لم يكن المدرس في البلاط محل ثقة العناصر الاخرى التي كانت تنظر اليه من هذه الزاوية نظرة لا تخلو من السخط.

وقد مر على البلاط عهد كان يتجاذبه الى مجاراة الحركة الوطنية ومعارضة معاهدة سنة ١٩٢٢ والسعي الى عدم قبولها، والثاني كان يحاول جر البلاط باتجاه يميل لقبول المعاهدة والرضوخ لاحكامها ويتزعمه رستم حيدر سكرتير الملك الخاص.

حادثة حسمت الموقف:

× وظل الصراع بين المدرس وحيدر يدور في اروقة البلاط يلوح مرة بشكل علني، ويختفي مرة اخرى بحيث لايبدو الا من وراء الكواليس حتى حسم في حادثة وقعت في ٢٢ آب سنة ١٩٢٢ عندما قامت مظاهرات نظمها الحزبان المعارضان وهما حزب النهضة والحزب الوطني احتجاجا على سياسة الانتداب وبمناسبة مرور سنة على تتويج الملك فيصل وقد اتجهت المظاهرات الى البلاط وفي ساحة القشلة تجمعت الجماهير وهي تطالب بمطالبب وطنية. وتعاقب الخطباء من الحزبين كل منهم يؤكد مطاليب حزبه. ووسط هذا الجو الحماسي وصل فجأة المندوب السامي البريطاني السير برسي كوكس ليقدم التهنئة التقليدية الى الملك، وما ان اقبلت سيارته يتصدرها العلم البريطاني ووقفت وسط تلك الساحة وامام باب البلاط وسط الجماهير المحتشدة ونزل عنها السير برسي كوكس حتى استقر مظهره الجماهير فاندفع احد المتحمسين من المواطنين وهو (حسون ابو الجبن) وهتف بسقوط الانتداب امام المندوب الساي الذي امتقع لونه فدخل البلاط هربا من غضب الجماهير وقدم احتجاجا رسميا معتبرا المدرس مسؤولا عن هذا الحادث ومحرضا عليه.

وقد استغلت هذه الحادثة من قبل السلطات البريطانية التي وجدت فيها ذريعة مناسبة لابعاد المدرس عن البلاط باعتبار ان وجوده في مثل هذا المركز يشكل خطرا على المصالح البريطانية ويعرقل تصديق المعاهدة، فاسرع الملك فيصل الى عزل المدرس من منصبه وكتب الى كوكس يطمئنه بذلك، وانقعت صلة المدرس بفيصل فترة من الزمن حاول بعدها الملك ان يسترضيه فعهد اليه بتولي رئاسة جامعة آل البيت التي تأسست في تلك الفترة تطمينا للمشروع الثقافي الذي كان المدرس يسعى لتحقيقه وقد بذل جهودا جبارة وكتب الكثير من المقالات في الصحف والمجلات عنه. ولما وضعت الفكرة موضع التنفيذ عهد اليه برئاسة الجامعة وكان المدرس شديد الاعتزاز بهذا المشروع الذي خطط له ليكون بداية متواضعة لجامعة عراقية تعيد لبغداد مركزها الحضاري القديم، ولكن سرعان ما اثيرت حوله المصاعب ووضعت امامه العقبات التي حسمها نوري السعيد عام ١٩٣٠ فاجهض المشروع وقضى عليه!

باسم الاستقتاء:

× وتلقى المدرس الضربة بالم، وشعر انه فقد شيئا عزيزا عليه فانسحب من الميدان وانتمى للحزب الوطني الذي كان في ذلك الحين يمثل الجناح المتطرف في الحركة الوطنية واصبح المعبر الاول عنها يطل كل يوم على المواطنين بافتتاحيات شديدة اللهجة تتصدر الصفحات الاولى من جرائد المعارضة وهي مذيلة بتوقيع (الكاتب الكبير).

× وعندما اتجهت رغبة الملك فيصل ونوري السعيد لابرام معاهدة عام ١٩٣٠ وقامت قائمة المعارضة الوطنية، برز المدرس بمقالاته العنيفة ووقف وجها لوجه امام الملك فيصل حين كتب مقالته المشهورة (باسم الاستقتاء ومصيره) عارض فيه المعاهدة بعنف وغمر قناة الملك منكرا اياه بمصير العروش التي تنكرت لامالي شعوبها، وقد وقع المقال وقوع الصاعقة على الملك وكبر عليه ان يهاجمه رئيس امنائه بهذا الاسلوب الذي لا يخلو من التهديد، فاوعز الى نوري لاسعيد بسوقه للمحاكم، وكانت المشكلة ان المقال الافتتاحي المذكور لم يكن يحمل توقيع المدرس. وانما كان كاغلب مقالاته مذيلا بتوقيع (الكاتب الكبير). ومضى نوري السعيد يفكر بمخرج قانوني فلم يسعفه الحظ فاضطر ان يلجأ الى قانون دعاوى العشائر الذي بخول وزير الداخلية تطبيق هذا القانون على بعض رجال العشائر لاسباب امنية فيبعدهم الى اماكن يقررها هو وحسب تقديره. واستنادا لهذا القانون القى القبض على المدرس ورفائيل بطي بوصفه رئيس تحرير جريدة (البلاد) التي نشرت المقال وابعدتهما الى السليمانية وكان الوقت شتاء والبرد شديدا فاثارت هذه الاجراءات ثائرة المعارضة فهبت الصحف الوطنية والاحزاب ورجال المعارضة في البرلمان تنتقد الحكومة على هذا الاجراء مما اضطرها الى اعادة المدرس وبطي الى بغداد بعد مضي ثلاثة اشهر على ابعادهما الى السليمانية. ولا شك ان هذه الحادثة وسعت الهوة بينه وبين الملك الى درجة انه عندما توفي فيصل ونظمت حفلات التأبين في رثائه التي ساهم فيها عدد غير قليل من الشعراء والكتاب بما فيهم الزهاوي والرصافي، لم يقبل المدرس المساهمة فيها رغم المحاولات التي بذلك لحمله على ذلك!

مجلس المدرس

× من المميزات التي كان يتحلى بها المدرس لباقته في الحديث مما ابرز شخصيته في الاندية والمجالس التي كان يحضرها فياخذ الحاضرين باسلوبه وما يتخلله من طرف وملح، وما يعززه من روايات يستقيها سواء من التاريخ القديم ام الحديث، لذلك كان مجلسه سواء في داره القديمة التي كانت تقع في مجلة الصابونجية) ام الحديثة في الاعظمية عندما انتقل اليها واخر حياته، يزدحم بالزوار على اختلاف الوانهم وافكارهم يصغون الى احاديثه ونوادره باهتمام يضفي عليها من خفة دمه وتهكمه المرير وسخريته مما يشوق الحضور على متابعتها، وكثيرا ما كان المدرس يستعين بالاشارة الى تصوير الوقائع التي يتحدث بها. فيشير بيديه تارة، ويومئ برأسه تارة اخرى وكانه يمثل الوقائع التي يسردها.

× ويذكر العلامة محمد بهجة الاثري بهذا الصدد:

– كان اول لقائي بالمرحوم فهمي المدرس يرجع الى سنة ١٩١١ في البلاط حسين قصدته حاملا من استاذي الشريف محمود شكري الالوسي مذكرة الى الملك فيصل تتضمن اراءه في اصلاح الاوقاف ومنذ ذلك الوقت بدأت صداقتي معه، وفي سنة ١٩٣٠ ابان اشتداد المعارضة صد المعاهدة البريطانية التي فرضها الانكليز على العراق في عهد وزارة نوري السعيد الاولى، كنت ازوره مع جملة من يزوره من المعارضين في داره وفي طليعتهم ياسين الهاشمي. وكنت قبيل ذلك ازوره احيانا في ايام الصيف في حديقة داره بالاعظمية، كما التقي به في دار الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي وكانت ندوة الاخير من اروع الندوات التي شهدتها بغداد طوال اقامته فيها وكان يحضر هذه الندوات ياسين وطه الهاشمي ورستم حيدر وفهمي المدرس ومعرف الرصافي وجميل صدقي الزهاوي وعطا الخطيب وطه الراوي ومنير القاضي وغيرهم من ساسة البلد وعلمائه وادبائه. وكان الاستاذ المدرس على صلة وثيقة جدا بالثعالبي، كالهما كان من رجال الفكر والسياسة وكانا على جانب عظيم من ادب النفس وبراعة الحديث وسمو الذوق وجمال الشارة.

وبشر المؤمنين

× عندما اندلعت حركة مايس عام ١٩٤١ كان المدرس شيخا كبير السن، ولكن عندما هب الشعب في هذه الفترة نفض عنه رداء الشيخوخة وتقمص روح الشباب فخطب خطبته المشهورة التي اذيعت من راديو بغداد حمل فيها على السفير البريطاني السير كورانس واليس حملة شعواء وجاء في خطبته (ايها الشباب المتحفز الى المجد الباذخ، ويا أباة الضيم.. العدو يجوس خلال الديار، ويطأ باقدامه القذرة تربة ابائكم الطاهرة، وان ارواح اجدادكم العظام تحف بكم حاملة صحائف تاريخكم المجيد ترتل ايات ذلك الماضي المحفوف بالسؤدد والشرف الرفيع، وان اجنحة لملائكة المقربين ترفرف فوق رؤوسكم صارخة (وبشر المؤمنين يا محمد) فذبوا عن اوطانكم واعراضكم ومقدساتكم واستعاد الناس في تلك الفترة مقالات فهمي المدرس وكتاباته التي كانت تهز العرش والاستعمار البريطاني.

رائد كبير!

× ولكن ما هو دور المدرس في الصحافة العراقية واثره عليها؟

يقول الزميل عبد القادر البراك:

– لايسع الباحث في تاريخ الصحافة العراقية ان يغفل او يتغافل دور الكاتب الكبير الاستاذ فهمي المدرس في اقامة اركانها والاسهام برفع مستواها في الشكل والمحتوى والمضمون رغم قلة الادوات وفقدان الجو الطبيعي الصحي الذي تزدهر الصحافة فيه، فالاستاذ المدرس خلال توليه لرئاسة تحرير جريدة (الزوراء) التي استهل بها الوالي المصلح مدحت باشا تاريخ الصحافة العراقية لمدة لاتزيد عن عقد واحد من السنين. لم يقصر في رفع مستواها فيما كتبه وترجمه عن اللغات التركية والفارسية والفرنسية، وفي اشرافه على ابوابها وتنظيم صدورها، كما لم يقصر في بث بعض الشؤون والشجون الوطنية فيها بالرغم من ان طبيعة الجريدة (الرسمية) كانت تحول دون الاعراب عن تطلعات ومطامح الشعب العراقي بالتحرر والاستقلال والتقدم. ان دور المدرس في (الزوراء) لم يقل عن دور الامام الشيخ محمد عبده يوم تولى رئاسة تحرير (الوقائع المصرية) الناطقة بلسان الدولة العثمانية على القطر المصري يومذاك، بل لعل ما نشره المدرس يفوق بكثير مما نشره الامام مع مراعاة الفوارق بين القطرين الشقيقين مصر والعراق انذاك.

التنظير والتحرير

× على ان المدرس كان في (التنظير) اقوى منه في (التحرير) لان الاول من مؤهلات المفكر الجالس في حين كان التحرير من مهمة المحترف والهاوي الذي يرابط في المطبعة والادارة ويتلكف الاعباء المالية بكل اشكالها. وقد تجلت قابليته في (التنظير) من خلال توجهاته لرواد مجلسه في بيته بالصابونجية وفي حديقته بالاعظمية كما ان توجهاته الوطنية واندفاعاته الثورية كانت تستحوذ على مقالات بعض من كا يرتاد ندوته من كتاب ذلك الجيل وفي مقالات المعارضة والتنديد بالحكم الاستعماري والسياسة البريطانية وحكام العهد الملكي المباد .

رحلة فهمي المدرس!

× وعلى ذكر مقالات فهمي المدرس التي اشار اليها الزميل البراك، فقد صدر قبل فترة الجزء الثالث من مقالات المدرس للسيدين عبد الحميد الرشودي وخالد محسن اسماعيل ورغم جهودهما المشكورة في الجمع والتقديم والتعليق ، الا ان الكتاب جاء خاليا من دراسة المدرس نفسه..

× وكتب السيد خالد محسن اسماعيل يقول:

– في كانون اول من عام ١٩٦٤ صدر الجزء الرابع من السنة الاولى من مجلة (الاقلام) وفيها مقال للاستاذ خيري العمري عن (فهمي المدرس) ووجدت فيه

عندما اندلعت حركة مايس عام 1941 كان المدرس شيخا كبير السن، ولكن عندما هب الشعب في هذه الفترة نفض عنه رداء الشيخوخة وتقمص روح الشباب فخطب خطبته المشهورة التي اذيعت من راديو بغداد حمل فيها على السفير البريطاني السير كورانس واليس حملة شعواء وجاء في خطبته (ايها الشباب المتحفز الى المجد الباذخ، ويا أباة الضيم.. العدو يجوس خلال الديار، ويطأ باقدامه القذرة تربة ابائكم الطاهرة

ما طبقه الاستعمار في العراق على فهمي المدرس منذ تاسيس الحكم الاهلي في اب ١٩٢١ حتى وفاته رحمه الله في اب ١٩٤٤ حين اختير رئيسا للامناء في البلاط الملكي تحرك الانكليز واذنابهم فابعدوه عن هذا المنصب وحين عهد اليه تاسيس جامعة آل البيت هبت كل القوى الخفية للقضاء على المدرس ومشروعه، ولم تسكت حتى اجهزت على الجامعة وامينها .. وحين اختير مديرا عاما للمعارف لم يبق فيها اكثر من اثني عشر يوما.. لقد كانت قضية (فهمي المدرس) المثل الطبيعي لاساليب الاستعمار البريطاني ضد رجال العراق.

وهنا سارعت الى اخي الاستاذ عبد الحميد الرشودي اعرض عليه مشروع جمع كتابات المدرس المنشورة في الصحف العراقية مما لم يضمه الجزءان الاول والثاني من مقالاته المطبوعة في حياته سنة ١٩٣١ سنة ١٩٣٢. ومن هنا بدأنا معا رحلة فهمي المدرس. فالمدى الذي امتدت اليه مقالات المدرس تجاوز الاربعين سنة ومجاميع الصحف لم تكن كاملة في موضع واحد، ومقالاته كانت طويلة بتواقيع عدة، كل هذا صحيح الا ان حبنا للرجل وحرصنا على انقاذ اثاره من الضياع جعلنا نحرث الصحافة العراقية حرثا، فاستقامت لنا مجموعة من مقالات المدرس زادت على ما نشر في الجزئين وكنا خلال ذلك نتصل باصحاب المدرس ومعارفه وتلاميذه، نتسقط معالم فهمي المدرس:: نضم الخبر الى الخبر ونرد الحادثة الى اسبابها، لتتكامل صورة هذه الشخصية الكبيرة، ولا ننسى ما قدمه لنا الاستاذة: محمد بهجة الاثري، خيري العمري، مهدي الرحال والمرحومون: ناجي القشطيني، ناصر الدين الكيلاني ، عباس الازاوي، عبد الاله حافظ وكمال ابراهيم وغيرهم.

× ويبقى سؤال: لم لم يكتب عن فهمي المدرس نفسه؟

اننا نؤمن ضرورة حصر اثار الاعلام والكتاب ونشرها قبل الاقدام على دراستهم لان الكتابة مسؤولية وهي بمثابة اصدار حكم في قضية خطيرة، وقبل اصدار الحكم لابد ان نقف على اوليات قضية كهذه وهي تتعلق باثار ذلك العالم متمثلة بافكاره وكتاباته ومواقفه وسلوكه، لذلك بدأنا باستكمال اثار فهمي المدرس لنضع امام الباحثين في تاريخ العراق الحديث . وفي فهمي المدرس نفسه مادة متكاملة تقوم على الامانة والموضوعية، فاذا اسفنا الى كل هذا ان المدرس كان محجوبا عن امته، بتخطيط مدروس، كان لابد من اختراق ذاك الحجاب ليعود الوجه النظيف وليحتل مكانه الطبيعي، لهذا كله بدأن بنشر اجزاء لثالث الذي يكمل اثار فهمي المدرس، اما دراسة الجوانب السياسية او الثقافية من تاريخه فكنا نقدر انها ستكون انذاك سهلة ميسورة وهذا ما تحقق فعلا لكثير من الباحثين.

اثار فهمي المدرس!

× هناك حقيقة خرى يشير اليها السيد عبد الحميد الرشودي، وهي تناقض ما اوضحه الزميل البراك ايضا عن اثار فهمي المدرس القمية، ففي الوقت الذي يؤكد البراك ان اثار المدرس كثيرة يوضح لنا الرشودي انها نزرة قليلة لا تتناسب وشهرته الواسعة وثقافته العالية ويقول: ان ذلك ليس بدعا فان جل الاساتذة المربين ودعاة الاصلاح في نهضتنا يشاركون المدرس في قلة الانتاج ولعل مرد ذلك يقود الى انهم كانو يفرغون لطلابهم ومريديهم فراغا يذهلهم احيانا عن ذوات انفسهم وخاصة امورهم والا فيم تفسر ندرة او نزرة مؤلفات الافغاني ومحمد عبده والكواكبي واديب اسحاق وغيرهم من اعلام النهضة العربية الحديثة؟

× نعود الى فهمي المدرس فنقول: لما لم تكن اللغة العربية عنده هي الوسيلة الوحيدة للتعبير فهو يتقن الى جانبها التركية والفارسية والفرنسية لذا وجدنا اثاره موزعة بين اللغتين العربية والتركية خصوصا في الصدر الاول من حياته حين كانت التركية لغة الحاكم والوظيفة والجامعة وقد وجدنا مؤلفاته باللغة التركية تشمل ما كتبه في العهد العثماني وهي (تاريخ ادبيات عربية) – الجزء الاول – وقد خصصه بالادب العربي في العصر الجاهلي وهو مجموعة المحاضرات التي حاضر بها طلاب دار الفنون في الاستانة بعيد الانقلاب العثماني، ويقع هذا السفر في الف صفحة وكان منهجه في التاليف ان يذكر النص الشعري او النثري باللغة العربية ثم يشفعه بشروح وتعليقات باللغة التركية. وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة القاهرة وهي المطبعة الخاصة بجامعة الاستانة، ويأتي بعده كتاب (حكمت حقوق اسلامية) وهو مجموع محاضراته في تاريخ التشريع الاسلامي، ثم مقالاته في الصحف التركية التي توزعت على قراء (شهبال) و(ثروت فنون) و(جريدة بغداد) لسان حزب الاتحاد والتقي، اما القسم الثاني فهي مؤلفاته باللغة العربية وتشمل مقالاته في الصحف العراقية والعربية ومحاضراته في جامعة آل البيت موزعة على مقالاته في السياسة والاجتماع والتاريخ، ومحاضراته في جامعة آل البيت تشمل (فلسفة المواريث في الاسلام) وتقع في ستين صفحة وقد حاضر بها طلبة الصف المتقدم ونشر طرفا منها في مجلة الاقلام البغدادية لصاحبها علي ظريف الاعظمي (سنة ١٩٢٨) و(بحث في الديانة الزراشتية) وكان المرحوم طه الهاشمي يحافر طلاب جامعة آل البيت في موضوع تاريخ الاديان، وقد وجد المدرس ان محاضرات الهاشمي في تاريخ الديانات القديمة موجزة لا تفي بالغرض، لذا استدعى الطالب (كمال ابراهيم) وقدم له هذا البحث وطلب اليه ان يستنسخه لم يقدمه الى زملائه الطلبة ليقوموا باستنساخه من غير علم المرحوم طه الهاشمي، و (بيان موجز عن جامعة الى البيت والشعبة العالية الدينية) في دورين من حياتها، دور التاسيس ودور الجهاد العلمي ويقع في ٥٦ صفحة من القطع الكبير وقد طبع في مطبعة الاداب ببغداد سنة ١٩٣٠ واخيرا الجزء الثالث من مقالات فهمي المدرس ويضم المقالات التي حورها بعد نشر الجزئين الاول والثاني وقد كان لي شرف المساهمة مع الصديق الاستاذ خالد محسن اسماعيل في جمعه واعداده للنشر.

رجل توائي

× وبعد ماذا يمكن ان يقال عن فهمي المدرس، وقد حاولنا ان نلم سريعا بجوانب خفية من حياته لقد كان المدرس من اوائل المثقفين العراقيين الذين اعتنوا بالتراث العربي الاسلامي، فكان يعلق صورة تمثل الريازة العربية في داره الى جانب اللوحات الفنية يوم لم تكن بغداد في تلك الفترة تعنى بهذه الامور، وكان رجلا متحضرا ومتحدثا يتذوق الفن ويتحسس جماله، وقد عرف عنه عنايته بالأوراد واهتمامه بها وقد قيل انه كان يستوردها من الخارج ويطرز بها حديقته وصالونه، وهو مولع بالجمال الذي كان ينعكس على شخصيته بحيث يظهر على حديثه عندما يختار الكلمات وينتقي العبارات كما يبرز ذلك على زيه وهندامه ايضا وكان يعنى بالقطط ويسعى لتوفير الراحة لها وتقديم الطعام اليها بنفسه ولا يرضى ان يمسها احد بسوء وكثيرا ما كان يغضب اذا تجاهل احد في داره تقديم الطعام لاعز شيء عنده.. القطط..!!

ملف نشرته مجلة "الف باء" سنة 1978

رحلة المدرس تجاوزت اربعين عاما بين الكفاح والابعاد من اجل غد افضل
قراءات سريعة فيما كتبه المدرس باللغة العربية والاجنبية معاً!

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2211)
السنة الثامنة
الخميس (4)
اب 2011

فهمي المدرس ألمع كاتب سياسي عراقي

عبد الحميد الرشودي

يعتبر المرحوم الاستاذ محمد فهمي المدرس من المع الكتاب السياسيين العراقيين الذين برزوا في الميدان السياسي منذ اعلان الدستور العثماني الى ما بعيد اندلاع الحرب الكونية الثانية، فقد حاز مركزا ممتازا بين الكتاب السياسيين المصلحين الاجتماعيين بما ألف من كتب وما دبج من مقالات كان يرفد بها الصحف العربية والتركية على حد سواء. وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن المدرس فان هناك جوانب اخرى تستحق الدرس والتحقيق، ولنا وطيد الامل في اصدقاء المدرس المخلصين وتلاميذه الوفياء ان ينبروا لملء هذا الفراغ وفاء للرجل الذي كرس ادبه لخدمة وطنه وامته.

مولده:

ولد فهمي المدرس في بغداد سنة ١٨٧٣م في بيت علم وفضل وأدب، حيث كان والده عبد الرحمن افندي بن سليم المدرس قاضيا شرعيا دائميا في محكمة بغداد التجارية.

وتنسب عائلة فهمي المدرس الى قبيلة خزرج القاطنة في الموصل وكان جده الشيخ سليمان اول من نزح من هذه العائلة فاتخذها سكنا ومقاما. وكان اول من لقب بلقب المدرس من هذه العائلة احمد الحافظ مدرس مدرسة السليمانية ببغداد اذ كان اول "مدرس" فيها، وقد عرف افراد هذه الاسرة فيما بعد "بآل المدرس".

دراسته:

تلقى الاستاذ المدرس بادئ ذي بدء مقدمات العلوم والقرآن الكريم عن والده، ثم اخذ سمته الى المدارس العلمية التي كانت تعقد في المساجد فتلمذ على جلة علماء عصره كالعلامة عبد السلام الشواف والعلامة الشيخ عب دالرحمن القره داغي والعلامة الشيخ اسماعيل الموصلي والعلامة نعمان افندي الالوسي والعلامة محمد سعيد افندي ، ثم اخذ فنون الخط عن العلامة السيد محمود شكري الالوسي.

ولما كانت ثقافة العصر امشاجا من العربية والتركية والفارسية فقد عكف فهمي المدرس على إتقان هذه اللغات، فتعلم التركية باعتبارها لغة الدولة، واتقن الفارسية باعتبارها لغة ادب وشعر، كما اصاب بهم من اللغة الفرنسية التي اتاحت له اطلالات واسعة على آداب الامم الغربية، فحصل تلاقح فكري بين ثقافته العربية الاسلامية والثقافة الغربية الحديثة مما ظهر اثره جليا في كتاباته وتحليلاته فيما بعد.

وظائفه:

وقد شاع فضله وذاع ذكره ولما يبلغ الحادية والعشرين فاختير مديرا لمطبعة الولاية في بغداد مع تكليفه بتحرير القسمين العربي والتركي من جريدة "الزوراء" التي انشاها الوالي مدحت باشا في بغداد، كما عهد اليه في الوقت ذاته تدريس العربية والتركية والفارسية في المدرسة الاعدادية الملكية. وكان بالاضافة الى ذلك يتولى الوعظ والارشاد في مساجد بغداد، ومما يؤثر عنه انه اول واعظ تولى وعظ الناس بغير كتاب اذ كان يعتمد حافظته وذاكرته الوفادتين ، ومن اشهر المساجد التي شهدت وعظه وارشاده جامع الوزير وجامع السراي.

ولقد استمر فهمي المدرس في الاشراف على تحرير جريدة "الزوراء" الرسمية بقسميها العربي والتركي فترة تنوف على خمس سنوات موزعة على فترتين ، الاولى من سنة ١٣١٩هـ - ١٣٢١هـ والثانية من سنة ١٣٢٣ هـ - ١٣٢٦ هت كما كان في الوقت ذاته يحرر بعض فصول الجريدة.

واختير عضوا في مجلس معارف بغداد، وبذلك يكون قد دخل في عداد "خلفاء قلم المكتوبي"، كما عين ناظرا لمدرسة الصنائع اضافة الى وظائفه الاصلية.

لقد كان المدرس – رحمه الله – ميالا بطبيعته الى حب الاصلاح وكان كثيرا ما يطلق لسانه في نقد اعمال الولاة ويجرح تصرفاتهم المضادة لامالي الامة، وكان يغشى مجالس الوجوه والاعيان المعروفين بميولهم المعادية للسلطة مما جعل عيون الولاة تترصده وتراقب حركاته وسكناته، رد على ذلك ان المدرس كان يندفع في تلك المجالس بحماس الشباب المتعطش للاصلاح فيطلق العنان للسانه مما حمل جواسيس السلطة على الوشاية به وانهاء خبره الى السلطان عبد الحميد، فاغتاظ السلطان منه واصدر ارادته السنية بتاريخ ١٠ تشرين الاول ١٣٢١ رومية (١٩٠٥ م) بنقله الى جزيرة "رودس" لاشغال وظيفة مدير مطبعة الولاية هنالك، وقد استطاع المدرس بذكائه ودهائه من التقرب والتودد الى الوالي وذلك بتطوعه لتدريس ابنائه وكسب رضائه مما حمل الوالي على ان يحسن الظن به فظهر ذلك في التقارير السرية التي كلف برفعها عن المدرس الى الاستانة فكان يثني على سلوكه وكفاءته واخلاصه للسلطة وولائه للسلطان مما جعل السلطان يصدر ارادته في ٩ تشرين الثاني ١٣٢٢ رومية (١٩٠٦ م) القاضية بارجاعه الى بغداد واعادته الى وظائفه السابقة التي كان يتولاها قبل نقله منفيا الى جزيرة "رودس".

وبعد عودته الى بغداد انتخب عضوا في مجلس اصلاح المعارف واستمر في وظائفه هذه الى تاريخ ٢٠ نيسان ١٣٢٤ رومية حيث سافر مجازا الى "فروق" وكان يحمل معه كتاب توصية الى ابي الهدى الصيادي ليستعين بنفوذه وجاهه الواسعين في الحصول على منصب يليق بفضله وعلمه وكماله. فلم يمض على وجوده في الاستانة شهران حتى قامت الحركة الدستورية في ١٠ تموز ١٩٠٨ وخرجت الجماهير الغاضبة صباح ذلك اليوم الى الشوارع والساحات تخطب وتهتف، فالتقى بها فهمي المدرس..

وقد روى المرحوم ناجي الاصيل هذا الحادث الطريف الذي عرض للمدرس في سفرته هذه فقال:

"وقد روى لي الاستاذ فهمي المدرس انه بعد وصوله الى استانبول بأيام قليلة خرج قاصدا دار ابي الهدى الصيادي، وكان في العاشر من تموز سنة ١٩٠٨ وفي جيبه التوصية التي سنوصله الى تحقيق امانيه عن طريق ابي الهدى، بيد انه رأى شيئا عجيبا في الطرقات.. رأى جماهير الشعب حانقة ثائرة تهتف من اعماق نفوسها.. يشاسون حريت .. يشاسون عدالت.. يشاسون قانون اساسي، ومعناها تحيا الحرية، وتحيا العدالة .. وليحيا الدستور..

كان الاستاذ فهمي يحمل التوصية في جيبه فوجد نفسه في دوامة فهو لم يكن يصدق ان مثل هذا الهتاف يخرج ونصف استانبول جواسيس السلطان كما كان يظن سابقا، وبهدوء انسلت يده الى جيبه يتحسس التوصية التي كانت معقد آماله فيرميها بعد ان يمزقها ويتغمر بلا شعور وسط هتافات الحرية والمساواة والعدالة بروح الشباب يهتف مع الهاتفين بحياة الحرية والعدالة والدستور.. وبسقوط الاستبداد ويعتلي اول منصة للخطابة فيهاجم عهد السلطان وطغيانه وجبروته..

وفي الاستانة يبدأ المدرس حياة جديدة ، فيغير زيه ويرتدي البدلة الافرنجية والطربوش بدلا من الجبة والعمة ويحلق لحيته ويحمل في يده العصا، ثم ينخرط في سلك التعليم العالي "فانتخب استاذا لاصول الكتابة في اللغتين العربية والتركية في (كلية الالهيات) من جامعة الاستانة، فاستاذا للاداب العربية في كلية الاداب، ولغة العربية في كلية الالسنة من الجامعة المذكورة في عين الوقت، وعلاوة على ذلك عهد اليه بكرسي استاذ "حكمة التشريع الاسلامي" في "ملكية شاهانة" مع تعليم اللغة العربية وآدابها فيها، وانتخب استاذا لتاريخ الآداب العربية في جامعة الاستانة، وللادب العربية في مدرسة الواعظين العالية، واستمر على التعليم في هذه المدارس العالية اثني عشر عاما من غير انقطاع.

مكانته في الاستانة:

لقد حظي المدرس بمكانة مرموقة في الاستانة مما جعله محط انظار العراقيين الذين وفدوا الى الاستانة يلتمسون الاقامة او الدراسة او الوظيفة، فكان المدرس خير معين لهم فيما كانوا يبتغون.

ومما ينبئ عن نيل المدرس وكرم اخلاقه: ان الرصافي قد هبط الاستانة بعيد الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٩ بدعوة من صاحب جريدة "اقدام" ليرأس تحرير قسمها العربي، الا ان ذلك لم يتحقق، فوجد الرصافي نفسه بحاجة الى مورد للرزق يستعين به في عيشته، وحز في نفس المدرس ان يرى احد مواطنيه وقد ضاقت به سبل العيش فتنازل عن بعض محاضراته في دار الفنون ليتيح المجال لزميله ومواطنه معروف الرصافي، وقد تم ذلك بالفعل من غير ان يشعر الرصافي بشيء قد يؤدي كرامته سوى ان مكانا في دار الفنون كان شاغرا فملأه.

وهكذا ظل فهمي المدرس يرتقي معارج التقدم ومدارج الكمال في الاستانة فشارك في مجلس مدرسي جامعة الاستانة، وكان هذا المجلس يضم اساتذة الجامعة وبعضهم من الالمان، وكانت مهمته وضع تخطيط جديد لمناهج التعليم العالي في الدولة العثمانية بما يلائم تطورات المناهج والنظريات التربوية الحديثة.

ولم يقف نشاط المدرس العلمي عند حدود الاستانة بل تخطاه الى خارجها ، فاوفدته الحكومة العثمانية سنة ١٩١٣ الى بيروت ودمشق للنظر في وضع حلول لمشاكل المؤسسات العلمية هناك وبخاصة كلية الحقوق ومدرسة الصنائع والكلية الوطنية في بيروت والوقوف على اتجاهات الكلية الاميركية والتحقق من موقفها قبل الحكومة العثمانية، وكذلك وقد استقبلهم الملك غير انه اعتذر عن سماع كلماتهم وخطبهم لارتباطه بموعد مسبق مع المندوب السامي البريطاني، وامر رئيس الامناء الاستاذ فهمي المدرس بالتوجه مع الوفد الى الجمهور والاستماع الى خطبهم ومطالبهم وابلاغها اليه، وفعلا انسحب الوفد يتقدمه رئيس الامناء وخرجوا الى الشرفة المطلة على ساحة البلاط حيث الجموع المحتشدة، وبدأ الخطباء يستعرضون اوضاع البلاد واطماع الانكليز وموقف الشعب من امانيه الغالية.. وفي غمرة هذا الجو المشحون، حضر المندوب السامي الى البلاط، وما كاد يرى ما يرى حتى اضطرب وامتقع لونه وتغيرت ملامحه، وشقت سيارته – بصعوبة – طريقها بين صفوف الجمهور، ولولا اسراع حرس البلاط واحاطتهم بالسيارة وصاحبها لاعتدى الشعب عليه، وما كاد المندوب السامي البريطاني يترجل من سيارته ويرتقي السلم متوجها لمقابلة الملك حتى دوت هتافات تعلن سقوط الانتداب والانكليز والاستعمار، واختفى المندوب السامي لحظات ثم لم يلبث ان خرج – بعد تهنئة الملك- وهو بادي الاضطراب وركب سيارته وقفل عائدا الى دار الاعتمار.. حدث كل هذا والخطيب يخطب والجماهير تهتف وفهمي المدرس يستمع ويرى ليبوافي الملك بما سمع ورأى..

ويبدو ان المندوب السامي وجدها فرصة طالما انتظرها بغيظ دفين، فما كان يعود الى مقر عمله حتى حرر كتاب احتجاج شديد ارسله الى الملك في اليوم التالي للحادثة وهذا نصه:

سعادة رئيس الديوان الملكي المحترم..

نرجو ان تخبروا جلالة الملك بان فخامة المندوب يحتج بعنف ضد ما لاقاه من المعاملة في آن كان فخامته يمثل حكومة بريطانيا العظمى مارا بباب غرفة حيث "درس فيها عادات وتقاليد الدول التي زارها وتعمق في دراسة حضارتها عن طريق المتاحف والاثار".

وفي كتاب الترشيح الذي رفعه المرحوم صالح باش اعيان وزير الاوقاف يومذاك الى مجلس الوزراء لاختيار فهمي المدرس امينا لجامعة آل البيت اشارة اخرى الى افادة المدرس من هذه الرحلة ، جاء فيه:

"ولقد تضاعفت مقدرته بمناسبة اقامته سنة ونصف في اشهر بلاد اوروبا كباريس ولندن وغيرهما حيث اطلع على وضع اشهر الجامعات كـ (الصوربون) و(كيمبريج) و(اوفسفورد) واجتمع باساتذتها ووقف على انظمتها، وكذلك في القاهرة اثناء سفره الى الديار المصرية بمقابلة علمائه واطلاعه على جامعتها ونظامها".

عودته الى الوطن:

لقد مكث المدرس في البلاد الاوروبية قرابة العام ونصف العام ثم عاد الى العراق قبيل تأسيس الحكم الوطني في ٢٣/ آب ١٩٢١، حيث اختير رئيسا للامناء في البلاط الملكي، الا انه لم يمكث في وظيفته هذه اكثر من سنة واحدة بسبب تهمة لفقت ضده عند زيارة المندوب السامي البريطاني "بيرسي كوكس" للملك فيصل الاول مهنئا بعيد التتويج الاول، ذلك انه تجمعت في ساحة البلاط الملكي في ٢٣ آب ١٩٢٢ تجمعات واسعة قادها الحزبان القائمان يومذاك وهما الحزب الوطني العراقي وحزب النهضة بمناسبة الذكرى الاولى للتتويج ، ثم لم يلبث ان صعد وقد يمثل قادة الحزبين لتهنئة الملك واسماعه مطاليب الشعب،

٢٤ اوكست ١٩٢٢

جانين بيرسي

نائب سكرتير المندوب السامي

فلما وقف الملك فيصل الاول على كتاب المندوب السامي البريطاني امر سكرتيره صحبته غير ملائمة، وقد تأثر جلالته كثيرا من الحادثة التي تشيرون اليها وقد امرني حالا لارجو منكم ان تخبروا فخامة المندوب السامي اسف جلالته العظيم، وان جلالته حسب رغائب المندوب السامي، ويرجو جلالته ان لا يبقى اثرا في ذاكرته لهذه الحادثة التي لم توجه اليه شخصيا.

٢٤ اوكست ١٩٢٢

رستم حيدر

وهكذا تم للانكليز ما ارادوا، فقد استطاعوا ان يبعدوا فهمي المدرس عن البلاط "لانهم وجدوا بقاءه في البلاط خطرا يعرقل مصالحهم ويخلق العثرات امام سياستهم"، كما هيأ عملهم هذا الجو الملائم لشن حملة اعتقالات واسعة ضد المواطنين المعروفين بنشاطهم السياسي المضاد لهم ولمشاريعهم الاستعمارية لتمرير معاهدة ١٩٢٢.

وبذلك انقطعت صلة المدرس بالبلاط منذ ١ ايلول ١٩٢٢ ..

المدرس وجامعة ال البيت:

لقد اختير المدرس بتاريخ ١١ كانون الثاني ١٩٢٢ عضوا في لجنة التأسيس لجامعة آل البيت للنظر في وضع اسس اول جامعة في العراق واختيار المناهج الدراسية الملائمة لها، وفي ١٣ نيسان ١٩٢٤ انتخب المدرس امينا لجامعة آل البيت.. انتخب امينا للجامعة بعد انزوائه عامين في عقر داره لاسباب لا يعلمها الا الله والراسخون في العلم. وقد افرغ المدرس وسعه واستنفذ جهده في سبيل ارساء الجامعة على مناهج علمية رصينة تستمد اتجاهاتها من ينابيع الثقافة الاسلامية، فخطط للجامعة دروسا علمية ممتازة واختار لها اساتذة فضلاء، وعمل على اصدار مجلة باسم "الجامعة" حفلت بمحاضرات الاساتذة ودراساتهم التي كانوا يلقونها على الطلبة.

وقد عارض هذا الاتجاه الاسلامي الذي كان يرغب المدرس ان يجعله الطابع المميز للجامعة تفر من رجال السياسة والتربية كانوا يرون وجوب الفصل بين التعليم والدين، زاعمين ان التعليم علم يستند الى العقل والتجربة وان الذين عقيدة في القلب! وقد كان على رأس هذا الاتجاه نوري السعيد وفاضل الجمالي وساطع الحصري، فوضعت العراقيل في سبيل الجامعة منذ بدايتها الى ان تم اغلاقها بموجب قرار مجلس الوزراء في ٢٤ نيسان ١٩٣٠ القاضي بسد الشعبة الدينية سدا مؤقتا.

في حين كان المدرس حريصا على استمرار الجامعة واتجاهها الاسلامي، وقد انعكس هذا الحرص في المقالات والمخابرات الرسمية التي كان يتولى تحريرها بنفسه، والتي يجد القارئ بعضا منها في هذا الكتاب.

لقد اثر اغلاق جامعة آل البيت في نفس المدرس تأثيرا بليغا مما حدا به الى تحرير بيان جامع تناول به الجامعة والظروف التي احاطت بها.. وقد نشر في رسالة بتاريخ ١ كانون الثاني ١٩٣٠ .

أثنا عشر يوما في المعارف:

وفي ١٥ آب ١٩٣٥ صدرت الارادة الملكية بتعيين فهمي المدرس مديرا عاما للمعارف براتب الدرجة الاولى وقدره (٧٠) دينارا، وقد باشر المدرس وظيفته الجديدة هذه بتاريخ ١٨ آب ١٩٣٥ ، الا انه لم يستمر فيها مدة طويلة، فقد وجد في طريقه من العراقيل والمضايقات ما يجعل من المستحيل عليه الاستمرار وتحقيق المنهج الاصلاحي الذي ينشده، فاستقال بتاريخ ١٩٣٥/٨/٢٨.

وطفق ينشر مقالات ضافية حول المعارف واصلاحها يكشف فيها للرأي العام العراقي حقيقة الامور في وزارة المعارف ويشير على المسؤولين – الذين حاربوه – بالوسائل الناجعة لانقاذ معارف البلاد من اعاصير التسيب والانحراف والفساد.

في دار العلوم:

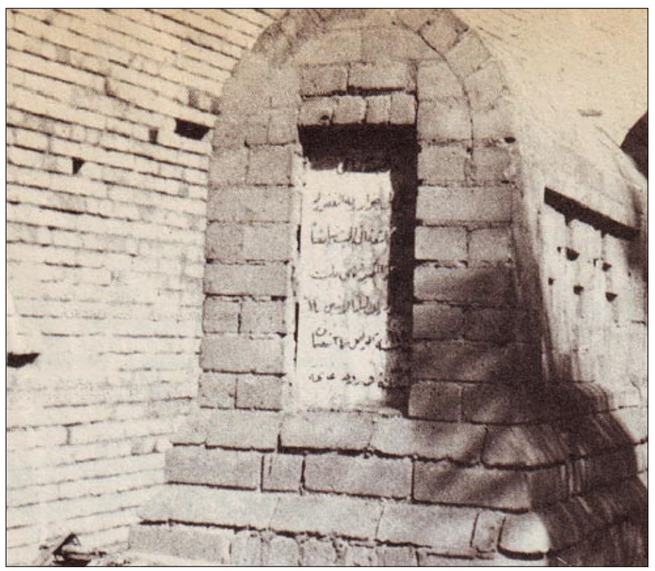

قبر فهمي المدرس في المقبرة الكيلانية

وبعد وفاة الحاج نعمان الاعظمي مدير دار العلوم في سنة ١٣٤٥ هـ - ١٩٣٦ م اختير المدرس خلفا له، وقد استمر في وظيفته الى سنة ١٣٥٧ هـ - ١٩٣٨م.

المدرس في اعوامه الاخيرة:

لقد اصطلح على المدرس في اعوامه الاخيرة كثير من الهموم والهواجس والاوهام التي كان مبعثها شيخوخته وجهاده الطويل وبوار سعيه، زد على ذلك ما كان يقاسيه من النشاط الادبي والسياسي شيء يذكر اللهم الا اذا استثنينا ما كان يكتبه بمناسبة المولد النبوي وخطبه الوطنية التي اذاعها من محطة اذاعة بغداد غداة حركة مايس ١٩٤١ التي اندفع في تأييدها وتأييد القائمين بها رغم اعتقاده بفشلها الاكيد، فقد علل هذا التأييد وذلك الاندفاع بقوله "انها فرصة عرضت علي لابث مبدئي واود فيها عن عقيدتي واهاجم اعداء امتي وقومي فيجب ان اغتنمها، وليس الشرط ان تنجح القضايا الوطنية حالا انما المهم التضحية بالقضايا الفردية، فاذا انتهت حركة رشيد عالي سنعود ثانية الى عراكنا مع نوري السعيد لاني واثق من نصرهم لان قواعدهم فيا لبلد، وهذه الاردن قريبة بجيشها لنصرة الانكليز، فلم لا اشارك في الدفاع عن كرامة وطني وقومي وامتي وليكن ما يكون بعد ذلك".

وبعد فشل حركة مايس ١٩٤١ اغلق فهمي المدرس مجلسه واوصد بابه دفعا لجواسيس السلطة المتواطئة مع الانكليز، الا ان بعض اصفياء المدرس ومريديه لم يثنهم ذلك عن زيارته والاستفسار منه عما يجري في البلد، فكانوا يدلفون اليه من بوابة خلفية بعيدة عن عيون الجواسيس ويتداولون مع اوضاع الشعب واحداثه. وكان رحمه الله رغم كل ذلك ذا ثقة وامل في مستقبل بلاده، فقد كان يعتقد "ان هذه حلقة من سلسلة كفاح طويل على الشعب ان يحتمله ويصطبر حتى يبلغ امانيه الوطنية".

وهكذا استمر المدرس في عزلته وصمته لم يخرج على الناس بمقال او حديث حتى قامت الضجة حول كتاب "رسائل التعليقات" الذي اصدره المرحوم معروف الرصافي ، فقد تسلم المدرس من مديرية الاوقاف العامة كتابها المرقم ٢٢٧٨ والمؤرخ ١٩٤٤/٢/٢٦ والذي رجته فيه ان يبدي رأيه في كتاب الرصافي، فاستجاب المدرس وارسل اليها بجوابه في ١٩٤٤/٣/٦ وطلب الى المديرية المذكورة الا تنشره.

وفاته:

لقد اصيب المدرس في آب ١٩٤٤ بمرض الزمه الفراش، وقد حاول كثير من اصدقائه وتلاميذه حمله على مراجعة المستشفى ولكنه رحمه الله ابى ان يفعل خوفا من غدر الطبيب الانكليزي في المستشفى! وقبل ان تنسلخ ليلة الاثنين الرابع عشر من آب ١٩٤٤ فاضت روح المدرس الى بارئها.. فطويت صفحة ناصعة نظيفة من الخلق الرضي والادب الجم والعلم الغزير..

وفي اليوم التالي خرجت قلة من اصدقاء المدرس وتلاميذه وعارفي فضله تشيعه الى مثواه الاخير في مقبرة الشيخ عبد القادر الكيلاني في الجانب الشرقي من بغداد.

عراقيون
من زمن التوهج
العدد (2211)
السنة الثامنة
الخميس (4)
اب 2011

فهمي المدرس

وجه مشرق من وجوه العلم والأدب والسياسة

حارث طه الراوي

في الرابع عشر من اب ١٩٤٤ غاب وجه مشرق من وجوه العلم والادب والوطنية والاصلاح في العراق الا وهو وجه استاذ الجيل (فهمي المدرس) الذي ارتفع بقلمه السيال وافكاره النيرة وادبه الحي وعلمه الغزير وسيرته النظيفة الناصعة ووطنيته الصادقة التي لم تتخاذل امام بطش الاستعمار وتنكيل اذنابه الى مستوى الرواد الابرار الخالدين.

ولعله اول اديب عراقي معاصر خاض غمار السياسة بعقلية الاديب الواسعة ومثاليته السامية الرحبة ونظراته البعيدة ففرض احترام الادب والادباء على محترفي العمل السياسي رغم ضيقهم بجرأته وصراحته واستقامته واياذائهم له كلما سدد سهامه القلمية القوية اليهم والى الاوضاع الشاذة في ذلك العهد.

ولد فهمي المدرس في بغداد سنة ١٨٦٩ على ما ذكر الدكتور يوسف عز الدين في كتابه (فهمي المدرس من رواد الفكر الحديث) ط٢ – ص ٨٧ . اما الشيخ هاشم الاعظمي فقد ذكر سنة ١٨٧٢ لميلاد المدرس وذلك في ج١ ، ص ١٧٩ من كتبه (جامع الامام الاعظم ومساجد الاعظمية) في حين ان الاستاذ مير بصري يذكر سنة ١٨٧٣ لميلاد فهمي المدرس وذلك في ص٤٨ من كتابه (اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث)، والله اعلم بالصواب.

واسرة المدرس ذات رصيد علمي محترم، ووالده الشيخ عبد الرحمن هو اول من درسه مبادئ العلوم ثم عهد بتعليمه الى شيوخ العلم في بغداد وفي طليعتهم نعمان الالوسي وعلامة العراق محمود شكري الالوسي. وتلقى اثناء دراسته دروسا في اللغتين التركية والفارسية فاتقنهما ثم درس الفرنسية فيما بعد واتقنها.

وقد ساعدته ثقافته الواسعة وذكاؤه المتوقد في محيطه المحفوف بالامية على الحصول على وظائف محترمة في فجر شبابه، ففي العشرين من عمره عين مترجما في ولاية بغداد ومعاونا لمدير مطبعة الولاية ثم مديرا للمطبعة فرئيسا لتحرير جريدة (الزوراء) الرسمية الشهيرة، بقسميها التركي والعربي سنة ١٩٠١. وقد اثار هذا التألق حسد العاجزين المتلئين بالحقد فوشوا به الى السلطان عبد الحميد الثاني متذرعين بما نشر في جريدة الزوراء) من ازاء تزعج الرقيب العثماني.. فنقل الاستاذ الى مطبعة الولاية في جزيرة رودس سنة ١٩٠٥ ، فترك فراغا في منصبه السابق في بغداد لم يسد الا بعد عودته اليه سنة ١٩٠٦ بعد اطمئنان السلطة العثمانية من حسن سيرة الرجل الذي لم يكن في قرارة نفسه مطمئنا من تلك السلطة المتعسفة.

وفي سنة ١٩٠٨ سافر فهمي المدرس الى (الاستانة) وهو يحمل توصية الى ابي هدى الصيادي صاحب الكلمة العليا في باط السلطان عبد الحميد الذي كان كما وصفه العلامة (محمد كرد علي) في ج١، ص ٢٤٤ من كتابه (المذكرات) : (يشير على السلطان بنصب من يرضى عنهم من الرجال وينصب حتى (الصدور العظام والوزراء الفخام) وبعمله هذا اصبحت الوزارات او بعضها رهن اشارته في كل ما يطلب اليها).

ولما قصد فهمي دار ابي الهدى لتسليمه التوصية رأى الشوارع تموج بالجماهير الغاضبة وهي تهتف بسقوط السلطان عبد الحميد، وتنادي بالحرية والعدالة والدستور فغلبه الحماس ومزق التوصية وانضم الى الجماهير الثائرة الهادرة يشاركها الهتاف ويقاسمها الشعور، وسرعان ما انطوى عهد عبد الحميد وتربع الاتحاديون على كراسي الحكم فعهدوا الى فهمي المدرس مهمة التدريس في كلية الالهيات بجامعة دار الفنون حيث مرسى اصول الكتابة والانشاء بالعربية والتركية ثم عينوه استاذا للادب في كلية الاداب وعهدوا اليه تدريس الثقة العربية في كلية اللغات وحكمة التشريع الاسلامي في الكلية الملكية الشاهانية والاداب العربية في الجامعة ومدرسة الوعاظ العالية. وقد جمع الاستاذ محاضراته التي القاها في جامعة استانبول باللغة التركية في كتاب سماه (تاريخ الادبيات العربية) وجمع محاضراته في الشريعة الاسلامية في كتاب (حكمة التشريع الاسلامي) باللغة التركية.

واوفده الاتحاديون سنة ١٩١٣ لدراسة مشكلات التعليم في دمشق وبيروت فقام بمهمته الثقافية خير قيام ورفع لهم تقريرا وافيا عن اصلاح المدارس. وبقي فهمي استاذا في جامعة الاستانة حتى انتهاء الحرب العظمى وانسلاخ الولايات العربية عن الامبراطورية العثمانية حيث استدعاه فيصل اثناء العهد الفيصلي في دمشق سنة ١٩٢٠ ليساهم في بناء الدولة العربية الفتية، فلم يمكث في دمشق وانما غادرها الى اوروبا سائحا لمدة سنة ونصف. اما لماذا لم يمكث في دمشق بعد تلبيته لدعوة فيصل فان كاتب سيرته الدكتور يوسف عز الدين يكتفي بالقول ولكنه تركها (يعني دمشق) الى اوروبا وقضى فيها حوالي سنة ونصف (فهمي المدرس) ص ٨٧ واما مير بصري فيقول عن ذلك في ص ٤٩ من كتابه (اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث) (ولم يجد فيها ما تانس به نفسه).

اما لماذا لم تانس نفسه في دمشق فلا جواب عند مؤلف (اعلام اليقظة). وارى ان السبب كامن في عاملين: الاول هو الفوضى التي كانت سائدة في الشام في العهد القيصلي والتي وصفها العلامة محمد كرد علي في الجزء الاول، ص ١٣١ من كتابه (المذكرات) بقوله: (.. وكانت الفوضى بادية في ادارته في دمشق، على نحو ما كانت ظاهرة في حملته بالبادية، واذا كان له بعض العذر في فوضاه يوم كان في الصحارى، فهو لا يعذر على الفوضى في حالة الاستقرار بالمدن والفوضى تبدو جلية في الحضر اكثر من البوادي وكان الاسراف في قصره كثيرا، وفيه سراق من كل صنف واناس لا يهتمون لغير مصلحتهم).

والعامل الثاني هو وجود الاستاذ ساطع الحصري على رأس وزارة المعارف في دمشق، ويصعب على عالم ومرب كبير من عيار فهمي المدرس ان يكون تابعا لعالم ومرب كبير من عيار ساطع الحصري، وقد تفجرت (الحساسيات) بين العالمين المربيين فيما بعد في العهد الفيصلي في بغداد على ما سنرى.

زار فهمي في رحلته الاوروبية الطويلة باريس ولندن ومدريد وغيرها من عواصم العلم والفن والادب فاهتز لما رأى واستفاد فائدة كبيرة من الاطلاع المباشر.

وعاد الى بغداد فعين في ٢١ آب ١٩٢١ كبيرا لامناء البلاط الفيصلي، والظاهر ان المحتلين الانكليز لم يكن ليؤوق لهم ان يسند هذا المنصب الكبير الحساس الى شخصية وطنية صلبة من عيار فهمي المدرس فانتهزوا فرصة المظاهرات الوطنية التي زحفت الى البلاط الملكي بقيادة الحزبين المعارضين، الحزب الوطني العراقي وحزب النهضة العراقية وذلك بمناسبة الذكرى الاولى ليوم تتويج فيصل لعرض مطالب الشعب العراقي عليه وخروج فهمي المدرس بأمر من الملك لتطمين المتظاهرين وتهدئتهم اللذين انحرف بهما المسلمون عن سنن التطور سبعة قرون غير شاعرين بما احدثه العلم من انقلابات جعلت الحقائق ملموسة وتلك الفلسفة مخزونة في زوايا المتحف، وان القول بعد ذلك بمعارضة الفنون للدين بما يجعل الدين معارضا للعقل. وذلك مردود في الدين نفسه) (فهمي المدرس من رواد الفكر الحديث) ص١٥٩.

واصطدمت مقترحات المدرس باراء الذي كان مديرا عاما للمعارف وما كان الخلاف على الجوهر وان حاول البعض اظهاره بهذا المظهر، ولكن (الحساسيات) بين العالمين الكبيرين لعبت دورا كبيرا في هذا الخلاف الذي وصل الى درجة الاصطدام في الصحف ووصل الامر بالاستاذ الحصري الى ان يستشهد برأي المستر سمث مفتش المطرف العام للتدليل على قوة حجته تجاه خصمه فهمي المدرس حيث قال المستر سمث (اني ارى انه يكون كارثة عظمى للعراق تاسيس اول جامعة للقطر تحت تاثير قانون سيئ التصور، وسيئ الكتابة، ومليء بالسخافات ، مثل القانون الذي عرض على مجلس (الوزراء) – المصدر السابق ص ٣٧٨.

وفي تلك الفترة الحالكة من تاريخ العراق انخرط الاستاذ فهمي المدرس في سلك حزب الاخاء الوطني المعارض ودعم جريدته الوطنية بمقالاته النارية ضد الاستعمار واذنابه.

وعندما تأسست جامعة ال البيت عين المدرس رئيسا لها وقد حصلت للاستاذ المدرس في الجامعة حادثة لابد من ذكرها لانها تدل على ثقته الكبرى بنفسه وعلى صلابة شخصيته وشموخ ابائه، وتدل من جهة اخرى على عقليات بعض وزراء العشرينات، فقد زار الجامعة وزير الاوقاف المرحوم الشيخ احمد الشيخ داود سنة ١٩٢٨ فلم يجد رئيسها الاستاذ فهمي المدرس فبعث له رسالة يقول فيها انه ذهب الى الجامعة ولم يجد امينها وان الموظف ملزم بالحضور في مثل عمله طوال الدوام ومكلف باخبار مرجعه بغيابه وان يعزز الاخبار بكشف طبي اذا كان التأخر ناشئا عن مرض الخ.

ولنترك للمرحوم طه الراوي رواية بقية الحادثة لانه شاهد تكملتها بنفسه حيث قال في مقالة (فهمي المدرس) جريدة الزمان العدد ٢١٢٩ في ٢٢ ايلول ١٩٤٤ (زرته مرة في بناية جامعة ال البيت فرايت على وجهه امارات الغضب وامامه تذكرة من وزير الاوقاف يومذاك يقول فيها ما معناه : (اني زرت الجامعة فلم اجدك فيها، فعليك ان تواظب على الحضور فيها في الوقت الرسمي)، فهونت الخطب عليه وقال: (ان حالتي مع هذا الوزير تشبه حال جمل (البنكرجية) مع الحجوز (وخلاصتها ان (البنكرجية) كانوا يضربون الطبل على ظهر جمل خاص، فاذا مضى على ذلك عشرون سنة اعفوه من الخدمة واطلقوه يسرح ويمرح، وليس لاحد ان يصده عن ارادة يريدها. فكان يقصد مزرعة لعجوز فياكل منها وليس للعجوز حق منعه، فاخذت بيدها اناء من النحاس واخذت تدق عليه لكي تخوف الجمل، فمر بها احد الناس وقال لها، يا هذه ، دق الطبل على ظهره عشرين عاما فما جفل ولا خاف، فكيف يخاف من نقراتك على انائك هذا؟!! (ولنا بعد ان عجمتني الايام وعركتني الاحداث لا اكترث لمثل هذه القشقشات ولا ابه لها).

وتسبب الاستاذ فهمي المدرس في تعطيل جريدة (الزمان) عندما نشرت مقالا بعنوان (الاستفتاء ومصيره) وسبق المرحوم الاستاذ رفائيل بطي رئيس تحرير الجريدة ومديرها المسؤول او القضاء بتهمة الطعن في الذات الملكية فحكم عليه بستة اشهر ونفذ الحكم على الفور، ولكن محكمة الاستئناف انزلت العقوبة الى شهرين، ورفضت محكمة التمييز المصادقة على الحكم واوعزت باطلاق سراحه بعد ان قضى في السجن ٢٩ يوما.

ولعل اقصى ما تعرض له الاستاذ المجاهد فهمي المدرس من نوري السعيد ، هو عندما نشر مقالا في جريدة (البلاد) لصاحبها رفائيل بطي سنة ١٩٣٢. هاجم فيه الاوضاع الشاذة انذاك فالهب بمقاله غضب (الباشا) السعيد الذي كان رئيسا للوزراء، فافقد زمام العقل من (الباشا) عندما لم يجد في قوانين الدولة ما يوجب العقوبة وبنفس بالتالي عن حقده الدفين تجاه الاستاذ المدرس فتذرع بالمادة الاربعين من القانون العجيب الغريب الذي كان يسمى بقانون دعاوى العشائر ليبعد بمنطوقها الاستاذين فهمي المدرس ورفائيل بطي الى شمال الوطن رغم معارضة بعض النواب وفي طليعتهم الاستاذ بهجة زينل الذي قال في مجلس النواب (اسجل اسفي الشديد على تطبيق العقاب على سعادة فهمي المدرس الذي يعلم الرئيس انه رجل ضحى بجميع ما لديه من حين نشاته الى الان في سبيل القضية العربية وهو مؤسس حزب العهد الذي هو حزب الحكومة الان، ولم يزل محتفظا بمبادئ ذلك الحزب في سبيل النهضة العربية الكبرى)، وطالب الاستاذ زينل (باتخاذ التدابير العاجلة لاعادة فهمي المدرس الذي يجله الجميع والذي كان في الاستانة استاذا في الجامعة وكان كبير الامناء في البلاط الملكي، وكان عميدا لجامعة ال البيت التي تشغلها هذه القاعة).. (فهمي المدرس) ص ٢٤٦ – ٢٤٧.

ويدور دولاب السياسة فيعين فهمي المدرس مديرا عاما للمعارف في اب ١٩٣٥ كما ذكر د. يوسف عزي الدين ص ٢٦٧ وفي ٨ اب ١٩٣٥ كما ذكر غيره واستبشر المخلصون بهذا التعيين الذي شذ عن القاعدة التي كانت متبعة الا وهي وضع الرجل غير المناسب في المحل غير المناسب ولكن الاوضاع الشاذة في وزارة المعارف وتحكم المستشارين البريطانيين انذاك حالت دون قيام هذا المجاهد الوطني بمهمته الاصلاحية ويقول الدكتور يوسف عزي الدين عن ذلك (لكنه لم يصبر على حياة النفاق والمداجاة التي كانت تهيمن عليها ولم يقدر هذه المرة على الثبات امام العراقيل التي كانت توضع امامه واستقال بعد اثني عشر يوما نشر بعدها عدة مقالات كشفت عن خبايا المعارف واسلوب رجالها الذين يسيرون في الخطة البريطانية).. (فهمي المدرس) ص ٢٦٧.

وبقي هذا الشيخ المتهدم عامر الايمان بالوطنية الصحيحة يتاجج في عروقه حماس الشباب الثائرين واباء الرجال المضحين، حتى اذا قامت ثورة الشعب والجيش سنة ١٩٤١ بقيادة المرحوم رشيد عالي الكيلاني حياها الاستاذ الكبير فهمي المدرس بحماس ملتهب في حديث باذاعة بغداد نشر في العدد ١٧٠٧ من جريدة (البلاد) بتاريخ ١٦ ايار ١٩٤١ تحت عنوان (العراق بين الموت والحياة الحرة) وحسبه ان يحث في نهاية حديثه شباب العراق على الصمود والتضحية وابناء الامة العربية على المشاركة في معركة العراق التي هي معركتهم جميعا حيث يقول:

(.. وقد وقع عليها الاعتداء البريطاني عن طريق الغدر والغش والخيانة بالرغم من ابائنا واخلاصنا (ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) .. والامة العربية المطبوعة على الشمم والاباء لم تخضع لظلامة ولم تطاطئ رأسها لجبار عنيد ولها من تاريخها ما يوحي اليها قوة وعظمة وعزما يفل الحديد.

وابناء العراق تشهد لهم مواقف النضال بانهم لا يبيتون على ضيم ولا يصبرون على مضض ولا تلين لهم قناة ولا يشق لهم غبار مادام في عروقهم دم ينبض بالشهامة والغيرة وعزت الناس وشرف الذات. فيا ايها الشباب المتحفز الى المجد الباذخ ويا اشبال الغزاة الفاتحين ويا اباة الضيم ان العدو يجوس خلال الديار ويطأ باقدامه القذرة تربة ابائكم الطاهرة وان ارواح اجدادكم العظام تحف بكم حاملة صحائف تاريخكم المجيد ترتل ايات الماضي المحفوف بالسؤدد والشرف الرفيع. وان اجنحة الملائكة المقربين ترفرف فوق رؤوسكم صارخة (وبشر المؤمنين) يا محمد.. وان روحانية رسول الله تشهد من اعلى عليين تشاهد جهادكم المقدس وما يفرضه عليكم الواجب الديني امام الله والوطن والذمة والتاريخ، وان نصراء الحق في مشارق الارض ومغاربها يصرخون بصرختكم فردت صداها البشرية بكاملها.

فذودوا عن اوطانكم واعراضكم ومقدساتكم فان الله والامة والعالم والحق والاسلام معكم، ويا ايها العرب الكرام ان العراق حجر الزواية في صرح استقلالكم وعار عليكم ان يمس استقلاله بسوء.

ايها العرب الامجاد ان العراق في هذه الساعة الرهيبة يخوض غمار معركة حاسمة اما الموت او الحياة فجردوا سيوفكم وشدوا الوثاق تحت لواء الحق المغصوب والحرية المهانة والاستقلال المهضوم واججوا نارا حامية تصلون بها طغيان الغطرسة والكبرياء والجبروت بعزم قهار وارادة جبارة وايمان كامل واتكال على الله احكم الحاكمين (ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين).

فيا فهمي العظيم، كم كنت وطنيا وكم كنت جريئا وكم كنت نظيفا وكم كنت عالما عاملا، فاذا ذكرناك بعد واحد واربعين سنة من رحيلك بالاجلال والاكبار فقد ادينا ابسط واجب من واجباتنا تجاهك يا استاذنا الجليل.. يا استاذنا الجليل.

ج. الجمهورية 1985/9/12

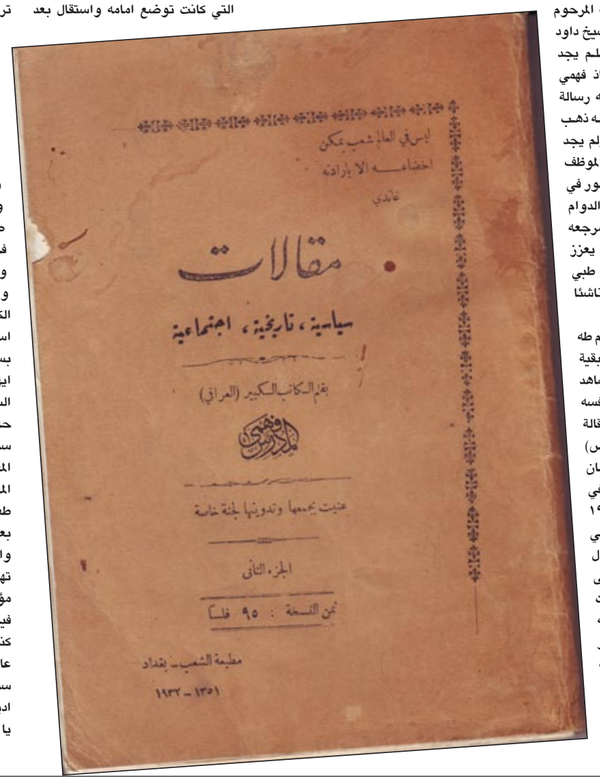

عراقيون
من زمن التوهج
ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم
مدير التحرير: علي حسين
الاخراج الفني: نصير سليم
التصحيح اللغوي: نوري صباح
طبعت بمطابع مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

في ذكرى الأستاذ فهمي المدرس

عبد القادر البراك

صحفي عراقي راحل

هذا مقال لم تفرضه مناسبة ذكرى وفاة الكاتب العراقي الكبير الاستاذ فهمي المدرس الذي انتقالى الرفيق الاعلى في اواخر شهر آب عام ١٩٤٤.

لأن المفروض في مثل هذا الرجل الفذ ان لا تكون مثل هذه المناسبة هي الدافع للكتابة عنه، فانه اكبر من اي مناسبة بل لعل القدر الذي اختار له يوم ميلاده ليكون منطلقة الى تبوء المكانة الرفيعة التي تبوأها بين رجال الفكر والعمل الوطني الخاص هو الذي اختار له يوم رحيله عن هذه الدنيا ليستشعر الملا فداحة الرزء بفقده كاتبه نير الفكر شريف القصد، يعيد النظر، يحسن انتزاع الدروس والعبر من الماضي القريب والبعيد، وبقدرة العلم المستوعب لما يريد ان يلقنه للاجيال يستطيع ابلاغ ما يريد تلقينه لمستمعيه وقرائه، فهو في مجلسه مثله في مقالاته، بليغ الحجة، واضح القصد، غريب التناول للمثل الدال على صحة ما يراه من استنتاجات وتعليلات وتوجيهات، ولست ادري، وطلاب الدراسات العليا يفتشون عما يصلح ليكون مدارا لرسالات الماجستير او اطروحات الدكتوراه ما الذي اذهلهم عن ادارة ما يتقدمون به لنوال الشهادات العليا حول دراسة اثار وترجمة حياة هذا الرجل على الصعيدين الشعبي والرسمي وفي مختلف جوانب ما باشر من اعمال وبث من آراء وواجه من خطوب في مقارعة الحكم العثماني، في الهزيع الاخير من ايام الاتحاديين وفي مقارعة الاستعمار البريطاني اعوانه فيما كتب من مقالات وما القى من خطب وما بشر به من آراء في الاحزاب الوطنية التي كان في طليعة موجهيها وقادتها في تحقيق اهداف الشعب، والوطن وعلى الصعيد الوظيفي، في ديوان البلاط، وفي ادارة المعارف، وفي عمادة الكليات العلمية المختلفة ليس في العراق الحديث بل في الدولة العثمانية ابان ازدهارها بـ (دار الفنون) وغيره من دور العلم التي ازدهت بها استانبول، فقد كان عميد هذه الدار التي اخرجت من صفوفها كبار الادباء والمفكرين وكانت محاضراته مرجعا ليس لطلابه في الدار بل كانت مرجعا لاكابر العلماء والفضلاء ممن زاملوه في العديد من المحافل والمجامع وممن اشتركوا واياه في الاتجاهات الفكرية والاجتماعية بل لعله كان من اكثر العاملين دأبا على بث فكرة التحرر من السيطرة العثمانية والدعوة الى اللامركزية، ولو لم يكن على قدر من الحيطة والكتمان والتعقل لكان مصيره كمصير انداده الاحرار الذين ارتقوا المشانق في محاكمات (عالية) السيئة الصيت والاثر.

لقد كان (فهمي المدرس) موضع احترام، ومحل خشية ممن احاطوا بالملك فيصل الاول فما كان احد منهم يجرء على الانتقاص من عمله وفضله واخلاصه وقدرته على ان يتقدم الصفوف في مجالات العمل الرسمي، ولكن خشيتهم منه كانت الباعث على ما حاكوا حوله من الشباك والاحابيل للايقاع بينه وبين ذوي الحل والعقد ممن يملكون التحكم بمصاير الرجال.

وما اصرار (السير برسي كوكس) المندوب السامي البريطاني في العراق على تنحية فهمي المدرس من منصبه ككبير للامناء في البلاط الا الدليل القاطع على نجاح خصومه في تأليب المستعمرين البريطانيين عليه وازاحته عن منصبه في البلاط رغم ارادة صاحب البلاط ذاته. دون ان يكون هنالك ما يبرر هذا الاجراء الشديد.

فلقد قام (فهمي المدرس) بواجبه الرسمي في الاستماع الى خطب مندوبي حزبي المعارضة الوطنية اللذين حملا الى صاحب البلاط مطالب حزبيها بتحقيق الحياة الدستورية النيابية الديمقراطية التي قامت البيعة على اساسها. اما ما نسب الى (المدرس) من انه قد خطب بالمتظاهرين فلم يكن سوى افتراء لفقته السلطات ونشره (امين الريحاني) بتوجيه من حاشية الملك فيصل الذين كانوا يحاولون بكل ما بوسعهم التفريق بينه وبين الملك لكي لا يستأثر بكتابته وعلمه وخلقه على الملك فيوجهه الوجهة التي كان يريد الوطنيون اتجاهه اليها بكل ما يملك من طاقات وجهود!.

ولم كين تطبيق قانون دعاوى العشاير عليه ونفيه الى شمال الوطن في عز الشتاء مع عدم جواز تطبيق هذا القانون الاستعماري على المدنيين الا البرهان الذي لا يدحض على ان اعوان الحكم الاستعماري على المدنيين الا البرهان الذي لا يدحض على ان اعوان الحكم الاستعماري كانوا يحقدون عليه ولا يترددون في انزال العقوبات التي تحد من نشاطه الكفري المتجسد فيما نشر من مجموعتي مقالاته النارية في مقاومة الاستعمار ومشاريعه ومعاهداته واحلافه!.

بل ان غلق (جامعة ال البيت) التي كان يريد (المدرس) ان يجعلها نواة للجامعة العربية وتشريد طلابها لاسباب واهية الا يباعث من حرص الفئة الحاكمة يومذاك على مقاومة كل ما يهدف المدرس الى تحقيقه من اهداف جليلة، بل ان هؤلاء قد عز عليهم ان تسند الى (المدرس) مديرية المعارف العامة فتألبوا عليه فلم يستطع البقاء في هذا المنصب الا فترة قصيرة من الوقت لم تمكنه من دراسة اوليات ما تحتاجه هذه المؤسسة.

فلا غرو ان تحدث مثل هذه الاعمال التعسفية ضد هذا الرجل ما احدثته من انفعالات تجسدت في تأييده لكل الحركات الوطنية المناهضة للاستعمال وكانت خاتمة تلك الاعمال تأييده لحركة مايس الوطنية مع وثوقه من عدم استطاعة قادتها ان يحققوا الامال التي عقدها الشعب على الثورة ، بل انه اراد بمشاركته الاعراب عن الاستمرار في الكفاح ضد الاستعمار حتى الرمق الاخير.

ولقد كان هذا الرجل مثال الاخلاص للاراء والمعتقدات التي يؤمن بها، ومثال المدافع عن حرية الرأي والفكر، ولعل من ابرز مواقفه في هذا الشأن جهره بالحقيقة في عدم صحة مؤاخذة (الرصافي) الشاعر الكبير والمفكر الحر على ما ذكره في كتابه (رسائل التعليقات) يوم تحالف بعض متنفذي البلاط ورجال السلطة وبعض المحسوبين على رجال الدين على اتخاذ ما جاء في هذه الرسائل ذريعة لاتزال اقدح النكبات بهذا الشاعر الكبير في اخطر ظروف مرت في البلاد بعد الاحتلال البريطاني الثاني للعراق.

وبعد فان في حياة، وآثار الكاتب الكبير المرحوم (فهمي المدرس) الكثير الكثير مما يصلح مادة لدراسات واسعة لمن يريد التصدي لاحياء الجليل من اثار مفكرينا الاحرار وكتابنا النوابغ من امثال (فهمي المدرس). وهذا بعض ما توخيت الاعراب عنه في الحديث عنه كما يقول حجة الاسلام (الغزالي) خلد الله ذكره.

ج. العراق 1985

عراقيون
من زمن التوهج